طريق المعرفة

النزوع الجنسي الأنثوي

جاك أندرييه

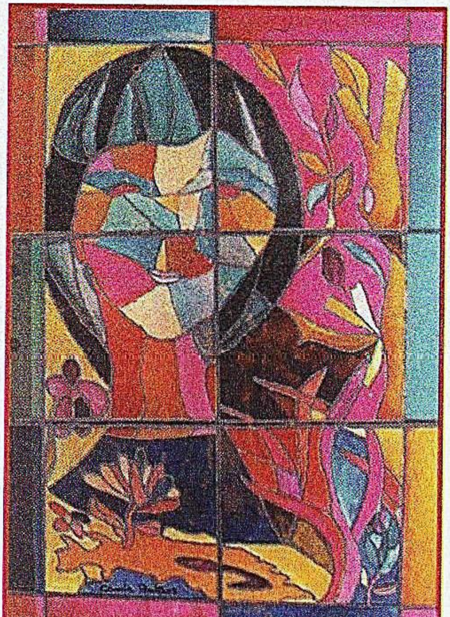

ترجمة

اسكندر معصب

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

1430 هـ ـ 2009 م

"ouvrage publié avec le concours du Ministère français
chargé de la culture- Centre national du livre"

مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع
بيروت ـ الحمرا ـ شارع اميل اده ـ بناية سلام ـ ص.ب. 113/6311
تلفون 791123 (01) ـ تلفاكس 791124 (01) بيروت ـ لبنان
بريد الكتروني majdpub@terra.net.lb

ISBN 978-9953-515-46-5

طريق المعرفة

جاك اندريه

النزوع الجنسي الأنثوي

ترجمة

اسكندر جرجي معضّب

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

هذا الكتاب ترجمة :

La sexualité féminine

Par

Jacques André

© Presses Universitaires de France

مقدمة

تعد «ليليا»، إحدى بطلات الكاتبة «جورج ساند»، ممثلة لشخصيات روايات المرأة في القرن التاسع عشر وذلك بقولها: «كنت أنذر نفسي بشحوب وبإغماض للعينين. وعندما كان يَخمد راضياً مشبعاً، أمكث ساكنة واجمة، متجمدة الحواس» فالاحساس الجنسي هو أمر يخص الرجال، فيما يتبقى للنساء البرودة والتضحية أو التظاهر بالمتعة.

وبالنسبة لتصورات «المرأة المعاصرة»، التي يندرج الإشباع الجنسي بالنسبة لها من مقومات الصحة مع الهرولة وبناء الأجسام، تظهر«ليليا» ورفيقاتها كبقايا من الماضي. وما يُتفق على تسميته بـ «التحرر الجنسي» يخص النساء بصورة رئيسية، وبمقياس أدنى الرجال. وبالفعل في الحقبة التي عاش فيها «أمثال ليليا»، كان الرجال يتصرفون بإمكانيات تلافي الصرامة الزوجية، مما يفترض نوعاً من النساء، عاهرة أو عشيقة، هاربة من الخطى بهدى «الفيكتورية»[1] في النزوع الجنسي. ومن اليسير الكشف عن الدلائل الحالية لتحرر النزوع الجنسي مثل: إبطال محرم البتولية، تميز لم يعد

(1) نسبة للملكة فكتوريا (المترجم).

نادراً للحياة الجنسية والزوجية، امتداد الحياة الجنسية من بداية المراهقة (مع التعقيد المحتمل للأهل) إلى قرابة سن اليأس، وإمكان أن تتقدم الرغبة الأنثوية على خطر «التعثر» بخيبة الرجال، وهذا ما عرفه «ستاندال» قبل نشوء علم التحليل النفسي، وهناك نقطة جوهرية، هي انفصال النزوع الجنسي عن خطر الحمل، هذا الانفصال الذي يتيحه منع الحمل وشرعية الإجهاض.

علم التحليل النفسي تحقق هو أيضاً من هذا الانقلاب الحقيقي بتصورات وبتمثلات اجتماعية للنزوع الجنسي بما في ذلك التصرفات الموافقة. إنما بمقياس اللاشعور، أي من الناحية غير المقبولة أو المكبوتة للرغبات وللقدرة العمياء للأنا الأعلى، والمحظورات، والشعور بالاضطراب يخضع ذلك لانطباع التكرار، والعودة إلى الذات، مع التسليم بتغيير النبرة: من الأداة نحو الدافع. وسنعود لهذه النقطة. إن الأخلاقيات المهيمنة في القرن التاسع عشر تملي على المرأة مايلي:

اعملي واقتصدي وتخلي عن الشهوة! بينما في هذه الأيام، مثلاً كما تملي **المحلات** الأنثوية عليها: كوني سعيدة مغتبطة أي باختصار تمتعي! وما بين هذين الإيعازين، دوّنت «مرغريت مير» بدعابة أن الأول يستحق على الأقل أن يكون قابلاً للتحقيق. فالأنا الأعلى والقوة المانعة اللاشعورية تتشكل، في أحد مظاهرها على الأقل، من استبطان تحريمات الأبوين والتي هي نفسها صدىً للتحريمات الاجتماعية. وربما يكون من المنطقي توقع تساهل من هذين الأخيرين، وتهدئة لطغيان الأنا الأعلى. ولم تنقطع العيادة

النفسية لـ«مرغريت ميد» عن التنوية للمحلل النفسي أننا بعيدون عن الحسبان. «ستحصلين على ذروة مهبلية! وإن لم تحصلي عليها، فبإمكانك دوماً مراجعة «عيادة الذروة» (مؤسسة افتتحها أخصائيا الجنس الأمريكيين، «ويليام هـ. ماسترز و فيرجينيا ي. جونسون»)....
ويظهر أن هذا الإملاء «المحرّر» من الناحية النفسية على الأقل، باهظ التكلفة، كالاكتشاف القديم للانتصاب الذكري ذات مساء في «ليلة العرس». فالنزوع الجنسي للمرأة اليوم ليس أقل مدعاة للاختلاف مما عليه في الماضي، حتى لو تبدّلت كلمات الشكوى وأحياناً الدلائل.

إن توهم الدراسة العلمية للنزوع الجنسي يقوم على أنه على صلة بالمعرفة التشريحية والمعرفة العشقية. وفي هذا تنكر لما يشكل جوهر الجنس الإنساني وما يفوق على كل معرفة وكل تعلم: إنه بُعده **اللاشعوري**.

إن الانصياع للاشعور هو وريث النزوع الجنسي الطفولي وكبته. كما أن تأسيس الحياة الجنسية يمهد الطريق لتيارين: إلزام التكوّن بين ما هو قبل الأوان في النضج البيولوجي (في مرحلة البلوغ)، وما هو بعد فوات الأوان من الطفولة، وهو فوات للأوان لأن الطفل ليس بحوزته عندئذ إجابات وافية (جسدية، عاطفية، تمثيلية) عن الحب الذي يأتيه من عالم الراشدين، والذي يتسلل في كل حركة رعائية، الحب الذي في أفضل حالاته. والكبت هو ضمن مقياس «قبل الأوان»، وهو يكمن في استحالة المعالجة، بصورة نفسية (وبالأحرى من الناحية الجسدية: التفريغ التناسلي، إنه لمرحلة آجلة كثيراً) للتهيج

الناجم عن العلاقات الأولى مع الراشد، وفي معظم الأحيان مع الأم. وتبنى الروح انطلاقاً مما يُنقل من خلال الأهل، وينطبع بحركاتهم وطريقتهم باللمس وبهز مهد الطفل وبالكلمات (والصمت) التي يوجهونها إليه، وبالمحادثات التي يتطرقون لها معه عن المناطق الحساسة في التهيج بجسده (وتحديداً: الفم والشرج والمنطقة التناسلية أي فتحات الجسد، وأماكن الاختراق والدفع وأماكن التبادل ما بين الخارج والداخل)، إنما كذلك بالمحن والتجارب التي يمر بها الطفل منذ عهوده الأولى، بترجمة ما يحصل معه إلى حين دنوه منه. «معاشرة الطفل مع الشخص الذي يعتني به، كما يذكر «فرويد»، هو بالنسبة له مورد متواصل للتهيج الجنسي والإشباع انطلاقاً من مناطق التهيج، علاوة عن أن الأم عموماً تمنح الطفل مشاعر خارجة عن حياتها الجنسية الخاصة، فتداعبه، وتضمه، وتهزه، وتتناوله بوضوح تام كبديل عن أداة جنسية»[1]. وقد أردف «فرويد» أن الأم قد ترتاب لمعرفة ما تفعل، لكنها لا تعرف ذلك. ولاشعور الراشد، «بالعواطف الخارجة من حياته الجنسية الخاصة» يعطي السلوك للعلاقات الأولى مع الرضيع. وينتج عن ذلك بالنسبة لكل طفل صغير، نموٌ للنزوع الجنسي وفقاً لاستعداد منحرف متعدد الأشكال، سواء في البحث عن الاشباع، أو عن «مكسب للذة»، انطلاقاً من جميع مناطق الجسد، وبصورة مستقلة في انجاز للوظيفة ـ في المص على سبيل المثال.

(1) Trois essais sur la théorie sexuelle (1905), Gallimard, 1987, p. 166.

هذا النزوع الجنسي الطفولي المتعدد الأشكال، وهذا التفجر الجنسي بدوافع جزئية (فموية أو شرجية)، له بالنسبة للنزوع الجنسي الانساني في مجمله نتيجة قاطعة: هي عدم التوازن عند الرجل بين الجنسي والتناسلي، وبصورة راديكالية أكثر، فصل النزوع الجنسي عن غريزة التكاثر. فلدى حميع الثدييات، «يرتبط النشاط الجنسي للأنثى ارتباطاً شديداً بتوازن غددي دقيق جداً، مرافق لمستوى كاف لنمو جريبات بويضية. وخارج هذه الحالة الفيزيولوجية، التي تُعرف باسم ostrus، لا نلاحظ عند الأنثى أي سلوك جنسي[1]». ومن غير المجدي التذكير أنه ليس لدى أنثى من البشر شيئاً من ذلك. فالتهيج الجنسي عند المرأة، وعند الرجل طبعاً، ليس له صفة مرحلية. فالأمر يتعلق بتشويه حقيقي، أو إقصاء للغريزة، استناداً لكلمة «ج. لابلانش»[2]. لعل أخذ الطفولية بعين الاعتبار لا يقوم على مجرد توسيع ميدان النزوع الجنسي، بل إنها تعدل من طبيعتها، كما يظهر فيها الدور المحدِّد للاشعور وتقهر باحتجاج النزوع الجنسي التناسلي فقط، مع امتلاك هدف ثابت وأداة محددة. وربما تكون الأمور أكثر بساطة فيما لو استطعنا وصف الحياة الجنسية انطلاقاً من «انجذاب» حتمي لجنس نحو الآخر. كما أن تنوع خيارات الأداة (وتحديداً الخيار الجنسي المثلي) هو هنا للتذكير بأنه لا يوجد شيىء منها. وكان «لاكان» قد لخّص بقول مأثور ومثير عندما قال: «بين الرجل والمرأة، لا تسير الأمور على ما يرام».

(1) Encycloaedia Universalis, article «comportement sexuelle» (J.P. Signoret) vol. 14. 932.

(2) Vie et mort en psychanalyse, Flammarion, 1970, P. 54.

يتيح الآن منع الحمل للمرأة أن توافق على الفعل الجنسي مع الرغبة بطفل أم لا، أي بمعنى المصالحة العملية بين النزوع الجنسي والتناسل. إنما، كما ذكرت «جويس مكدوغال»، إلى ما نحن معنيون بتحليل رغبة متوارية لدى المريض أو المريضة بامتلاك طفل من الأب والأم، فالتخيلات الوهمية اللاشعورية هي «في منأى» عن أي تحرر اجتماعي من النزوع الجنسي، ومتجذرة في الطفولة، بعمر لم يكن فيه لمنع الحمل واقعية نفسية[1].

والعبرة التي يأخذها التحليل النفسي من الانقلابات التي طرأت في السنوات الأخيرة، هي في أنه ليس هناك علاج اجتماعي للفراغ النفسي، وأن «التحرر الجنسي» لا يترجم في أي حال من الأحوال بإزالة الكبت، أو بامتصاص حتى جزئي للاشعور. مما لا يعني أن شيئاً لم يتغير. وقد لا نصادف هستيرية كبيرة كما كانت تجد «شاركو» ملذاتها فيها. لقد كانت ابنة قرن (طبي) يمارس طقوس حرق البظر بالحديد الحامي أي (إطفاء النار بالنار)، أو الكي بنترات الفضة لحواجز العضو الأنثوي[2]. لكن زوال الهستيرية الكبرى لا يعني زوال الهستيريا كألم نفسي، بمجمل أعراضها، وبالتحول الجسدي نحو الذهان. وتستمر النساء في الشكوى مما لديهن وفي رغبة ما ليس لديهن، وفي سرد حكايا الأفاعي بنفس الذعر الذي كان فيما مضى،

---

(1) Entretien de F. Gantheret avec Joyce Mcdougall, Nouvelle Revue de psychanalyse, 29 1984, P. 135 sq.

(2) Cf. R. H. Guerrand , Haro sur la masturbation. In Amour et sexualité en Occident. «Points» Le Seuil, 1991 P. 304.

وفي نقل قلقهن النفسي أمام الشهوة والشبق إلى مضايقات جسدية متنوعة.

تتيح قوة التخيل الوهمي السليم للأفعى، تمثل إحدى الخصائص الأساسية لنظام اللاشعور: حيث تكونه زمانية التصورات. وتنتمي الأفعى إلى تراثنا الميثولوجي (انظروا أولئك الذين يعضون النهود ويخترقون جنس المرأة الفاجرة في لوحة «موساك» المثلثية) كما لو أنه يخلق تواصلاً مع الحالم في يومنا هذا (رجل كان أم امرأة: لا تختلط الأنوثة اللاشعورية مع الجنس الجسدي التشريحي).

ومع ذلك، يتغير شيىء ما. فالبرودة الجنسية تواصل إظهار الدلائل، إنما في حال وجودها بلا ريب، وغالباً ما تنساق أمام إعياءات نفسية أقل تموضعاً. فكلمات الشكوى قد تغيرت، وتلكم مثال مختصر جداً، اختير بسبب تكراريته. إنه يتعلق بامرأة شابة في مستهل الثلاثينات، والتي تألف حياتها الغرامية من تواصلات (تطول أو تقصر)، ساقتها اللذة فيها إلى إخفاقات لا محيد عنها. وقلقها اليوم في أن «حريتها تتحول إلى شرودٍ وهيام» في حين أن ما تتمناه مع الرجل هو أن تنتفي الأمور من الزمن ومن الطفل.

ولا تترجم الحرية الحالية للنشاط الجنسي بطريقة معادلة لحرية الحياة النفسية فيما يخص القلق النفسي وأعراضه المرافقة المحتملة. فالذروة المهبلية ليست وحدها الدليل على الصحة النفسية. ويلاحظ «فرويد»، في معارضته لحقبة العالم القديم الذي عاصره قائلاً: «وضع القدماء النقاط على الحروف على الدافع نفسه، في حين نركّز

نحن على الأداة»[1]. ويبدو تماماً أن عقرب الساعة ينطلق ثانية بالاتجاه الآخر. ويعرض تحقيق حديث لمجلة «Elle» عدد نيسان ابريل/ 1993، يتعلق بالنزوع الجنسي، عدداً كبيراً من النسب المئوية المتعلقة بتردد الأفعال الجنسية، والأعضاء البظرية، والمهبلية واختيار الأوضاع، والفتحة المختارة، ..إلخ. بعد التحقيق من نشاط متصاعد، وتنوع ممتع، وتخلص الصحيفة إلى القول: ولم نسألهن ما إذا حصل كل ذلك مع الزوج أم العشيق أم بائع البيتزا. فالأداة أصبحت قابلة للتغيير، ومنتقصة وغير عابئة بمقام الشريك. والمحلل النفسي هو، في هذه الأيام، الشاهد من خلال عيادته ومعاينته السريرية، عن الأحاسيس الجنسية التي أصبحت مدار بحث، لا بل «مدمنة» (بمعنى الاستسلام)، وفقاً لأقوال«جويس ماكدوكال» [2]. والمطلوب من الأداة القابلة للتغير، أن تقوم مقامها في واقع حل المشكلات الداخلية. وليست فاعلية الحل غالباً، عقبة هشة إزاء ظهور القلق النفسي.

وإذا كان من الصحيح أن القلق النفسي لفقد حب الأداة يشكل النوعية في القلق النفسي الأنثوي ـ سنعود لهذه النقطة في فقرة القلق النفسي ـ فيمكننا الافتراض أن «السقوط» والانحدار من أداة إلى شريك يجعل المرأة تواجه موقفاً نفسياً صعباً، على وجه الخصوص، وعسيراً على التفاوض.

---

(1) Trois essais, op. cit. P. 56, n. 1 (ajout de 1910).

(2) Art. cité.

وبالطبع، هناك مقاربات أخرى للنزوع الجنسي الأنثوي عن أن تكون تحليلية نفسية، وعلى سبيل الذكر، وجهة النظر التشريحية الفيزيولوجية. ويبقى أن نعرف أننا إذا اقتربنا من ناحية أخرى، فإننا نقترب من الشيئ ذاته. وقد عرّف «ماسترز و جونسون» الذروة الأنثوية على الشكل التالي: «إنها مرحلة خاطفة من الاسترخاء الجسدي ومن ازدياد الاحتقان الوعائي والـ myotonie المتنامي استجابة لتنبيهات جنسية». و «المسطحة الذروية» الواقعة في الثلث الخارجي للمهبل، هي موئل الانقباضات التي عددها ما بين 5 ـ 12، تدل على شدة الذروة[1]. وإذا كانت هذه الشدة أداة تجربة ذاتية للمرأة التي تحس بها، فتفاصيل الطور الجسدي الداخلي بحد ذاته لا يكون على حاله مطلقاً، مثله مثل الغالبية الكبيرة للأطوار الفيزيولوجية. إن اللاذاتية هذه لا تعني «اللاشعور». فـ «الاسترخاء من الاحتقان الوعائي» ليس مكبوتاً، بل يظل خارج النفس. إن فيزيولوجية الجماع قابلة للملاحظة، ولا تتماشى مع نفس التصورات التخيلية التي ترافقها، فجزء من هذه التصورات عسيرة البلوغ (لاشعورية) حتى على الشخص نفسه.

ويشغل الرجوع إلى التشريح (أي إلى الازدواجية البظرية المهبلية، وإلى التقارب بين المستقيم والمهبل) مكانة هامة في تحليل نفس النزوع الجنسي الأنثوي. كما يتعلق الأمر بتشريح يرتكز على تاريخ الموضوع، ويتقبل معنى هذا التاريخ وحتى جغرافيته

---

(1) Les réactions sexuelles, Robert Laffont, 1968, P. 147 sq.

المتفردة، وغالباً بالابتعاد كثيراً عن الواقع التشريحي. ولعل مبدأ «منطقة التهيج» في التحليل النفسي لا تعني مجرد منطقة جنسية من الجسد، إنما إدراج للهوى التخيلي في الجسد. وهذا ما يتيح إدراك أن مناطق جنسية «بطبيعتها» قد تبقى كامنة من وجهة نظر التهيج، وعلى العكس، مناطق وتموضعات جسدية لا علاقة لها بالأحاسيس الجنسية من حيث التشريح، تكون مصادر حيوية للذة والإشباع.

وكأي نظرية، تتطلع نظرية التحليل النفسي نحو الحقيقة، أو على الأقل نحو جزء منها. فهناك ما قد نعتبره كمكتسب، حيث أن النزوع الجنسي الإنساني هو نزوع نفسي (بعيد كل البعد عن السلوك الغريزي)، حيث أن النواة في ذلك هو اللاشعور وحيث أنه متجذر في الجنس الطفولي وفي كبت هذا الجنس. وبالنسبة لنظرية التحليل النفسي للنزوع الجنسي الأنثوي، أي الوظيفة الجنسية النفسية للمرأة، يُشار إليها بتباينات عميقة بدءاً من الصيغ الأولى لهذا الموضوع وحتى وقتنا الحاضر. وكأن تعذر رؤية الجنس الأنثوي، وطبيعته الداخلية، انعكس على تعددية الافتراضات الخاصة به.

إن البعد النفسي الجنسي للنزوع الجنسي الإنساني، والتبادلية الجنسية النفسية، وتعددية القيم والتماهيات، كل ذلك يشكل في آن واحد، اكتشافات لعلم التحليل النفسي، وإمكانية ممارسته. كما يتيح أيضاً لرجل في أن يكون محللاً نفسياً لامرأة، والعكس بالعكس. وإذا كانت نظرية التحليل النفسي للأنوثة مقسمة، فإن هذا التقسيم ليس بحد ذاته جنسياً. وإلى جانب «فرويد» نجد أيضاً «هيلين دوتش»، و«جان لامبل دي كروت» وآخرون. وفي الصف المقابل، يساير

«أبراهام وجونز» «ميلاني كلين» و «كارين هورني» ورفيقاتهما. وإن لم نكن منغلقين في جنس بيولوجي، فذلك يعني أن جنس الباحث المتقصي لا أهمية له، عندما يتعلق الأمر بتنظير الأنوثة. إنه احتمال ضعيف. فلعبة تحديد الهويات تحرر التميز التشريحي، ولا تعبأ بتحديد الجنس. أما أين يقع التباعد المحتمل؟ فسندع للقراء والقارئات اتخاذ القرار في ذلك.

الفصل الأول

الحياة الجنسية عند المرأة - لمحة تاريخية

تعد **ملحمة «جلجامش»** أقدم عمل أدبي معروف، حيث يفصلنا خمسة وثلاثون قرناً عن هذه القصيدة البابلية الطويلة. وتتساءل الآلهة إنانة إحدى شخصيات الملحمة: «فرجي، أكمتي الممتلئة/ من سيمر عليها بالمحراث؟ . . .»[1] وبصيغة ريفية أيضاً، إنما أكثر وداعة، تقول الحبيبة في **«المزامير»** (VII,13): «سنذهب منذ الصباح إلى الكروم،/ وسنرى الكرم إذا أورق،/ وإذا ما البرعم قد فتّح/ وإذا ما شجر الرمان قد أزهر،/ هناك سأدعك تداعبني».

ف «الثورة الجنسية» الحالية هي مصدرٌ لكثير من الأوهام. وأضخم ما فيها يكمن في الاعتقاد أن الحرية التي تتمتع بها النساء في هذه الأيام، هي نتيجة لتطور تاريخي متواصل، منذ الظلامية المفترضة لعهود سابقة وحتى السلوكيات المتنورة للأزمنة الحديثة. حيث تشهد **ملحمة جلجامش**، وكثير غيرها من الوثائق، كالمزهريات اليونانية أو خزفيات الهنود الحمر في أمريكا، بتصورات جنسية أنثوية لم تضف

(1) Cf. J. Bottéro, Tout commence à Babylone, in Amour et sexualité en Occident, «Points», Seuil,1991, P. 32.

عليها صور أيامنا هذه الشيئ الكثير. فتاريخ الحياة الجنسية للنساء يصعب جداً بل يستحيل توثيقه، إلا أننا نستطيع استشفاف بعض الخطوط الكبرى وفقاً لعصور وثقافات لتعاقبات وتناوبات بين إعتاق (نسبي دوماً) وبين كبح وكبت، ومن دون أن تجتاح إحداهما الأخرى اجتياحاً قاطعاً. أحد القرون الذي غذى المشاريع الأكثر بربرية حول هذه المسأة، هو هذا الذي خلفنا. ففي عام 1894 أعرب الدكتور «بوييه» عن أمانيه، وهو طبيب من بين آخرين، بابتكار «حزام أمان»، لكي يمنع عن النساء «المساس»: «جهاز خفيف ومستوفٍ الشروط بحيث يسد بإحكام الفتحة المهبلية، مباعداً الفخذين مع ترك فتحة صغيرة لمرور البول والحيض، مقدّماً، على ما اعتقد، خدمة جليلة لمن تريد الاستمناء»[1]. كان لوهم الاستمرارية التاريخية التحررية استجابته المعاكسة، إنه العصر الذهبي للأنوثة، في العهد الأسطوري للسلطة الأمومية البدائية أو هيمنة الأمازونيات. ولعل أقوال الحبيبة في كتاب «المزامير» تستحضر بالتأكيد مذهباً قديماً للذة، إنما مقابل نسيان ما تفصح «الحكمة» عنه: «فم المرأة الزانية، خندق عميق (ينتقل من الأسفل إلى الأعلى، من المهبل نحو الفم، ولنا عودة لهذه النقطة فيما بعد) والذي يثير سخط إياقِه (Iahvé) سيسقط فيه» (XXII,14).

في مقدمة كتاب «تاريخ النساء» يشير «جورج دوبي» و «ميشيل بيرّوت» إلى صعوبة مشروعهما، مهما كانت الآثار الدقيقة المتروكة من قبل النساء «فهي لا تصدر عنهن بأقل من نظرة الرجال الذين يحكمون المدينة، ويبنون

---

(1) Cf. R H. Guerrand, Harro sur la masturbation!, Amour et sexualité en occident , op. cit. P. 304.

ذاكرتها ويديرون أرشيفها»[1]. إن لم نضف إلى ذلك بأن الرجال مثار البحث، «بموقفهم ووظائفهم واختيارهم» (مثل رجال الكهنوت) يقفون في معظم الأحيان على مسافة بعيدة عن النساء، ونقيس التباسات الإعادة التاريخية، وخاصة عندما يتعلق الأمر باختراق ودية النزوع الجنسي. إن تزايد التصورات الأنثوية على مر القرون، تعطينا معلومات أكثر سواء حول لاشعور الرجال أو النساء أنفسهن. فحول لاشعور الرجال بين الماضي والحاضر، تبدو كثير من التصورات قد عفا عليها الزمان بنظر العلم أو بنظر التطور الاجتماعي ولم تفقد بالفعل من قدرتها على الاستحضار الخيالي. وربما ليس من العسير، وفقاً لتنوعات الأهواء التخيلية لمريض اليوم، العثور على انعكاس لما كتبه «أفلاطون» في كتاب le Timée «لدى النساء ما يسمى الرحم وهو حيوان داخلهن، لديه شهية لصنع الأولاد، ورغم العمر الملائم، يبقى زمناً طويلاً بلا ثمرة، ويفرغ صبره ويحتمل هذا الحال على مضض، ويجوب أنحاء الجسد، ويسد ممرات التنفس ويمنعه، ويبث أقصى درجات القلق النفسي بل ويؤدي لأمراض أخرى من كل الأنواع» (91c). ومع ذلك يجب توخي الحذر: فلكي يكن ذكوريات (مع التحفظ في الظرف ما بين الإعياءات النفسية التي قد تستولي على النساء، والتي تمس داخل الجسد، وبين مقاصد «أفلاطون»، الفارق ليس كبيراً جداً) تسهم هذه التصورات أيضاً في النزوع الجنسي الأنثوي. وترى بذلك نفسها وتتهيأ، في العلاقة مع الرجل، إما لكي تلتقي به أو تتجنبه. ولعل الذاتية الداخلية يُعدّ جوهري للأحاسيس الجنسية النفسية، وسنعود إلى ذلك، مع الإشارة إلى الدور الذي يلعبه القلق النفسي المتعلق بالإخصاء عند الرجال في التكوّن وفي التعايش مع النزوع الجنسي الأنثوي.

وعلى مر القرون، وفي ملامح واضحة، هناك ثلاث فئات سائدة من التصورات المتعلقة بالنساء: أحد هذه التصورات يؤكد

---

(1) Histoire des femmes, t.I: L' Antiquité, Plon, 1990, P.8.

دونيتها وخضوعها الناجم عن هذه الدونية، وآخر يفصل المرأة عن الأم ويميز تلك الأخيرة، وثالث يذهل من المغالاة في الجنس لدى المرأة.

أولاً ـ الدونية والخاضعة

«المرأة أدنى من الرجل في كل شيئ. وعليها أن تخضع ليس لتكون مغتصبة، إنما لتكون محكومة، لأن الله وهب القوة والقدرة للرجل». هذا القول لـ «جوزيف فلافيوس»، يعود للقرن الأول من عصرنا... وهناك كثيرون غيره دعموا بشكل أو بآخر الأطروحة نفسها. ويُطلب من الفعل الجنسي نفسه، أن يتوافق مع نظام العالم، حيث ستكون المرأة على ظهرها وسيتغلب عليها الرجل، تلك هي الوضعية التي أجازت بها الكنيسة. فأن تحتل المرأة وضعية الزوج، لهي فانتازيا تشوش النظام الطبيعي. وإخضاع المرأة هو إحدى المعطيات الاجتماعية ونتاج سياسة الأجناس: «تقترن النساء بأولئك الذين يبتهلون ويحرثون ويحاربون، وهن يخدمنهم»، هذا ما كتبه الأسقف «جيلبرت دي ليميريك» في القرون الوسطى. حيث يُتوقع من الزواج الأحادي وغير القابل للفصم أن يضمن شرعية الأنساب حيال تشككات الأبوّة. كما تعنينا تصورات أخرى لـ «الدونية» الأنثوية، تلك التي تترك مجالاً لغربلة الرهانات اللاشعورية. ويمكننا جمعها باثنين من المساجلات، يقرن الأول الدونية بعدم الاكتمال، فيما يقرن الثاني الدونية بالأجزاء السفلى.

وقد أعاد «أرسطو» للأذهان تأكيده بأن «الأنثى هي ذكر مبتور»

وبأنها مخلوق ثانٍ، أدنى من الرجل رجاحة وفضيلة، وهي لم تُخلق على صورة الله. بل هي ناقصة نقصاً جوهرياً، وتعاني وفقاً للرواية التوراتية من أنها ليست إلا ضلعاً مأخوذاً، «المرأة ضلعٌ زائدٌ من أضلاع الرجل» كما قال «بوسويه». هل كل هذا أراجيف تاريخية من ثمار الجهل؟ وعلى العكس من الملاحَظ تُمكّننا من متابعة آثار ذلك، ومنها التبدلات التي فرضتها على مفاهيمنا الرجاحة العلمية. مثال على ذلك: كان «أمبرواز باريه» مقتنعاً، ارتباطاً بالطروحات الخاصة بعلم الأجنّة والتي كانت المسيطرة على مدى ردحٍ طويلٍ من الزمن، بأن «الأنثى تشكلت بعد الذكر». فيما نعلم اليوم العكس بأن الشكل الأولي غير المتمايز للأعضاء التناسلية الخارجية هو ذو نمط أنثوي، وبصورة مستقلة عن جنس الصبغي، وحدَهُ الفعل اللاحق للهرمونات المسببة. لنمو الجنس الذكري أدت إلى تحوّلٍ محتمل للأعضاء الذكرية. وبعيداً عن إسقاط التأكيدات الرجولية للمقولات الطبية، أفسح هذا الاكتشاف المجال للإثبات التالي: بأن حالة تمايز الرجل هي إذاً «متفوقة» على حالة المرأة! فيما اللاشعور له أسباب تجهلها المعرفة، وهو ما ينقص أي مقاربة لهذه المسائل التي تعد «أيديولوجية». ومن جهة أخرى، أن يكون مصدر هذه التصورات ذكرياً، لا يعني أن النساء لا تشارك بها، بقدر ما هو من الصعب عليهن تحديد موقعهن خارج «قوالب مثالية وقواعد في السلوك» تُنقل لهن[1].

يتعارض آدم وحواء كالزراعة والطبيعة، كالروح والجسد،

(1) Histoire des femmes, t. II : Le Moyen Age, Plon, 1990, P. 18

كالروحانية والإحساس، إنه انقسام طغى على ميدان الثقافات الغربية، فعلى سبيل المثال، عند «السّامو» في فولتا العليا، يتعارض الرجال والنساء مثل القرية والأدغال[1]. وتكفل نظرية التحليل النفسي نفسها وعلى طريقتها هذا التقاسم السلفي والتناقل الثقافي، ويتصف العبور من الأم إلى الأب، كما كتب «فرويد»، بـ «انتصار حياة الروح على الحس، إنه إذاً تقدمٌ للمدنية، لأن الحواس تشهد للأمومة، بينما الأبوّة حدسية مبنية على مسلّمة واستنتاج»[2]

وفي تسجيل آخر، تُستمد «دونية» المرأة من مصادر جنسية واضحة. يقول «سان أوغستين»: نحن نولد بين البول والبراز. هذه الجملة ذكرها «فرويد» في نص مكرّس للحط والانتقاص من قبل الرجل للمرأة[3]. وقد حلل في ذلك النص الانقسام، بما هو مألوف عند الرجل، من تيارات حنونة أو شهوانية، وينطبق هذا الانقسام على الأداة، في المعارضة بين الزوجة والعشيقة، أو بمعنى أوسع، تلك التي ينجب منها أطفالاً وتلك التي يعيش معها أحاسيسه الجنسية (واقعياً وخيالياً). والثانية هي «أدنى» في أكثر من ناحية، لأنها غالباً ما تنتمي لطبقة اجتماعية أدنى، لأنها قد لا تكون «فنانة بالحب» (والكلام لـ«فرويد»، الذي يتطرّق في مجال آخر عن الخصوصيات الفاسقة

(1) Cf. F. Héritier, L'identité Samo, in L'identité. Séminaire de C. Lévi - Strauss, Grasset 1977.

(2) L'homme Moïse et la réligion monothéïste (1939), Gallimard,1987, P.213.

(3) Sur le plus général des rabaissements de la vie amoureuse (1912) , in La vie sexuelle, PUF, 1968.

«للمرأة المتوسطة غير المثقفة»)[1] ولأنها «أدنى» في الوضعية التي تتخذها أثناء الجماع، وهو جماعٌ (من الخلف)[2] بصورة اختيارية، وننضم هذه المرة صراحة لأقوال «سان أوغستين»، حيث خصّ طب العصر الكلاسيكي بتحريفٍ يخفي الاشمئزاز، المزاج الجنسي التخيلي إخفاءً سيئاً، فدون الإشباع الذي يناله الرجل من الجماع، كيف له أن يرضى «بوضع ذلك العضو الذي يفخر به جداً» في الثلم الأنثوي، دون مراعاة «للقذارة التي تمر عبر هذه البالوعة»[3].

لعل قسوة هذه الصيغ تسمح بقياس أن قولنا «دونية» النساء، هو من الناحية (الأكثر رسوخاً وتشبثاً) مطلب لاشعور الرجل، وبدقة أكثر لشهوانيته (ليبيدو) في ارتكاب المحارم. وبالفعل، لا يفتأ «فرويد» في الإشارة على أن وراء المرأة المنتقصة (وإن صح القول، المستخدمة من الخلف)، تستتر الصورة المعاكسة لأداة الحب الأكثر رفعة، ألا وهي الأم.

ثانياً ـ المرأة والأم

من اللافت أن ندرة النصوص التاريخية حول النزوع الجنسي عند المرأة لا يعادلها إلا وفرة الوثائق المتعلقة بالخصوبة. فهي، أي

(1) Trois essais sur la théorie sexuelle, op. cit. , P. 118.

(2) Cf. J. André, Le coitus a tergo, le plus général des rabaissements et la féminité des hommes , in Aux origines féminines de la sexualité, 1995, PUF.

(3) Cf. Y. Knibiehler et C. Fouquet, La femme et les médecins, Hachette, 1983, P. 75.

الخصوبة، مركز اهتمام الفئة الاجتماعية، من خلال الانشغال بتناسلها الخاص. فالتصور الأنثوي يتوافق مع تصور المرأة الرحم، والتي تناقلتها الأساطير والأديان على المدى الواسع، كما تناقلتها طبعاً الأدبيات الطبية، منذ أقدم الوثائق المعروفة(مخطوطة البردي «كاهون»، وهي نص مصري يعود بتاريخه إلى 1900 ق. م) وحتى يومنا هذا. وعلى مر القرون، على الرحم وحده، واضطرابه الانزياحي تعود جميع أمراض النساء. وعلى «الهستيريا» (وهي كلمة من أصل يوناني hustera، أي الرحم) آنئذ ترتد كل الآلام، والمعالجة لفترة طويلة بالتبخير والذي كان يؤمل منه التهدئة وإعادة الأمور إلى نصابها.

أما الفصل بين الجماع وبين تسلسل الجماع، الحمل، الولادة، الإرضاع، فلم يتحقق إلا مؤخراً، كما أن الممارسات الاحترافية في منع الحمل والإجهاض بدت من سمات العصر الإنساني. إنما ما يعنينا ليس متابعة المنجزات العلمية في ضبط الأطوار الفيزيولوجية، بقدر ما يعنينا تناول الرهانات التي تتولى محو المرأة حيال الأم. وترقية هذه الأخيرة يساهم في الكبت، حيث أنها تسمح في حجب العار الذي تشكله الأحاسيس الجنسية الإنسانية، وفي استقلاليتها إزاء الغايات التناسلية. وليس من قبيل المصادفة أن يَفرض العلم المسيحي، أكثر من منظومة ثقافية أخرى، التوافق في الفعل الجنسي، وتوجّهه نحو الإنجاب لأن يكون ديناً للسيدة. كما أن رجاء علماء اللاهوت، بعد القديس «جيروم» في تلاشي الجنس في الإنجاب، وانتزاع الطابع الجنسي بغية الوصول إلى التشبه بصورة السيدة العذراء. ولا يطلب الكثير من الأمهات الدنيويات، ومع ذلك يُطلب منهن الكثير. وما بين أيام الصيام (أي العفة)

ومراحل «النجاسة» (من حيض وحمل وولادة)، تتضاءل أجندة حياتهن الجنسية المصرح بها وتتقلص ويقصر زمانها.

ويعقب تبجيل الصورة الأمومية، الطرق نفسها في الإبعاد والكبت والقمع، فالقمع يخص العلاقات بين الزوجين (تمكنت العصور الوسطى من اعتبار «الزنى» بين الزوج والزوجة مساويا للزنى الحرام)، كما تركز الكبت على الأحاسيس الجنسية للأم كما في علاقتها مع طفلها. تلك التي تحدث عنها فرويد، بأنها تهز وتداعب ابنها متخذة إياه كبديل عن الأداة الجنسية، وهنا تقع تحت وقع ضغط الكبت الذي، والحق يُقال، لا تمتلك شيئاً خاصاً عن القرون الوسطى بل تتجاوز كل الثقافات. وحتى عندنا (كما عند بعض المجتمعات الأفريقية) تتحقق الأم من انتصابية القضيب، ولا تصبح الحركة ممكنة إلا بإدراجها في علم الخصوبة، وليس الحديث هنا عن قضيبية البظر، إذاً تُدفع الأمور نحو الاستئصال أكثر مما تدفعها نحو الإثارة. والأم الجنسية بكونها في آن واحد المثير الأول، والأداة بامتياز لرغبة زنى المحارم، تجمع كل الشروط لأن تُمسك بشدة في معزل عن الوعي. وتبقى دوماً هنا وهناك بعض ومضات الوعي وصفاء الذهن، فيما يخص الأحاسيس الجنسية المفرطة لحركات الرعاية، ويقول «بيوتي راديل» عام 1786: «لاينبغي دوماً الدفاع عن المرضعات في التقرب من أزواجهن» لأن استحالة التمتع بأداة رغباتهن «تكفي لإيقاعهن في عواطف هستيرية، وهن دوماً مزعجات للطفل»[1].

---

(1) Cité par H. Parat - Torrieri, L' impossible partage, Nouvelle Revue de psychanalyse, n°45, Gallimard, 1992, P. 43.

لعل الوظيفة المكبوتة التي توفرها الأمومة للأنثى ليست إلا فعل ثقافي وتاريخي، ويُحسب من ناحية من النواحي على الأحاسيس الجنسية نفسها. وليس من النادر، لدى شابة أو امرأة أن يأتي الحمل المبكر على إغلاق ما هو غير محتمل بل ومثير للقلق النفسي، إنه الانفتاح على الأنوثة. فنظرية التحليل النفسي ذاتها لا تسلم دوماً من هذا الرفض. وعند «وينيكوت»، على سبيل المثال، : للأم التي يصفها، (كشركة مساهمة) أذرع وأيد، إذا ما أحاطت واحتوت، تكون بالمقابل ضعيفة جنسياً جداً.

وعلى المقاربة التحليلية النفسية للمعطيات التاريخية أن تتوخى الحذر في عدم الخلط بين التصورات المهيمنة، والبيّنة، وبين تلك التي تحكم الحياة الجنسية الفعلية. فتلك الأخيرة غير معروفة لنا تماماً، لكن عناد العلماء في تعريف النزوع الجنسي والإنجاب يدلنا، على أقل تقدير، أن ذلك لم يكن بديهياً. وحتى في خضم المقولات العلمية والنقاشات العلمية، لا تترجم دوماً معادلة النزوع الجنسي والتناسل بمحو الأولى. وحتى العصر الكلاسيكي، يدين علم الطب لـ «غاليان» وهو طبيب من «بيرغام» (القرن الثاني)، في قسط كبير من مفاهيمه حيث كان يميز بين «السائل الأنثوي» (المتدفق في الرحم) والسائل الذي «يسيل من المهبل عند المرأة في أشد لحظات استمتاعها بالمعاشرة الجنسية». لكل شيئ مكانه. وإذا أردنا الخوض بفضولية أكثر، ففي خضم السجالات اللاهوتية، يتبين أن الغاية التناسلية لها أحياناً الحظ الأوفر في نشوة النزوع الجنسي الأنثوي، بدلاً من اللجوء إلى الحد منها. وسواء تبنينا وجهة نظر «غاليان» حول

السائل الأنثوي أو وجهة نظر «أرسطو»، التي لا تعول على دور النطف الأنثوي إلا دوراً ميسراً للتشرب إنما ليس مخصباً، ويتفق علماء اللاهوت عموماً على أن «تواقت القذف بين الرجل والمرأة يزيد من فرص الحمل ويمهد السبيل لإنجاب طفل أجمل»[1]. ومن ناحية أخرى يُثار التساؤل إلى أي نوعٍ من الخطيئة ينتمي الكبت الإرادي للأورجازم (ذروة اللذة) من قبلِ الزوجة: أإلى خطيئة فاحشة أم عرضية؟

يقود الاهتمام الذي يوليه علماء اللاهوت للأورجازم الأنثوي إلى جسارات غير متوقعة، هل يُسمح للزوجة بلوغ الأورجازم بالإسراف في المداعبات حينما ينسحب زوجها منها قبل إطلاقها لسائلها؟ هناك 14 عالم لاهوت من أصل 17 ممن شاركوا في هذه المشادة حول الملامسات ما قبل الجماع، أجابوا بـ نعم كما ذكر لنا «ج.ل. فلاندران» ولدى الأطباء وبالتحديد «أمبرواز باريه» يعتبر اقتران الطرفين بالقذف شرطاً حتمياً (وليس فقط مسهّلاً) للتشرب. ويستتبع ذلك نتائج هامة، فلكي تحس المرأة «بالشهوة والقابلية الطبيعية» ولكي «يُتاح للسائل أن يسيل بوفرة» ينبغي أيضاً أن «ينال الأداة إعجابها ويكون مرغوباً لديها». وفي نص جميل جداً «في نهاية القرن السادس عشر» يضع «أمبرواز باريه» تصميماً أولياً لفن عشقي:

«لدى استلقاء الرجل مع خليلته أو زوجته، يتوجب عليها أن

(1) Cf. J. - L. Flandrin, La vie sexuelle des gens mariés dans l' ancienne société , Communications, n°35, Seuil, 1982, P.106.

تتكلف اللطف، وتدغدغه وتداعبه وتثيره، إن كان يجدها جامدة تجاه الحافز: ولن يدخل المزارع إلى الحقل بطبيعة إنسانية تفقده نفسه، دون أن يقيم أولاً مقارناته التي تحصل بتقبيلها ومحادثتها عن لعبة السيدات المحنيات بمس أجزائها التناسلية وحلمتها الصغيرة لتكون مُثارة ومُدغدغة، بقدر ما تكون شغوفة برغبات الذكر (الذي يكون حينما يختلج له الرحم) لكي تمتلك الإرادة وتلازمها الشهية، وتصنع من الباري مخلوقاً صغيراً، ولكي يتمكن السائلان من الالتقاء معاً، لأن أي امرأة لا تكون أسرع من الرجال في هذه اللعبة. ولكي تتقدم أيضاً في الحدث، ستقوم المرأة بإثارة الأعشاب الحارة، بنبيذ طيب كنبيذ يوناني، في أجزائها التناسلية، وستضع كذلك في عنق رحمها قليلاً من المسك والطيب، وحين ستشعر أنها مُثارة ومنفعلة تقول لزوجها، عندئذ ينضمان معاً، وينجزان لعبتهما بعذوبة، منتظر أحدهما الآخر، ومقدماً اللذة لرفيقه»[1].

لعل الفارق كبير هنا مع الطروحات اللاحقة للطب «الفيكتوري»، المتحرر من الاعتقاد بتواقت القذف الضروري للإخصاب. وهكذا فالدكتور «مورو دي لا سارت» سيدعم فكرة أن المرأة الباردة جنسياً تحمل بيسر أكثر، لأنها تحتجز السائل بشكل أفضل من زوجة هائمة[2].

(1) De la génération, cité par Y.Knibiehler et C.Fouquet, op. cit, P.157.

(2) Cf. A. Corbin. La Petite Bible des jeunes époux, in Amour et sexualité en Occident. Op. cit P. 243.

ثالثاً - بوابة إبليس

في السجال حول موضوع تقاسم لذة الحب سواء للمرأة أو للرجل، سلّم «زيوس وهيرا» زمام أمرهما إلى «تيريزياس»، وهو الذي ساقته المغامرات الأسطورية لأن يكون من كلا الجنسين بالتتابع. وقد أجاب: إن قُسّمت المتعة إلى عشرة أقسام، فسينوب المرأة تسعة، فيما ينوب الرجل قسماً واحداً. ولأنه خان سر جنسه، ولأنه رأى منه الكثير، ضربت «هيرا» الوقح بالعمى، وهو العقاب نفسه الذي فُجع به «أوديب» المجرم الزاني بامتياز. وما يمكن أن نسميه وجهة نظر «تيريزياس»، يتجاوز العصور والثقافات، حيث صدر في القرن التاسع عشرترجمة وضعية، ففي مادة «الشبق»، يشير باب «المرأة» من قاموس العلوم الطبية، إلى أن المرأة تساوي وسطياً رجلين ونصف!

لعل عدم التساوي بالاستمتاع، هو طريقة أخرى للقول: «المرأة خطرة» على الرجل وعلى نفسها. ولعل لعنة سفر الجامعة[1] تنبثق منذ الأزمان الغابرة: «وجدت أمرَّ من الموت، المرأة التي هي شِباكٌ وقلبها أشراك ويداها قيود. الصالح قدام الله ينجو منها. أما الخاطىء فيُؤخذ بها» (سفر الجامعة، الإصحاح السابع 26).

وبالتشديد على إضفاء الصفة الجنسية على الخطيئة الأصلية، ستتحامل القرون الوسطى على التصورات الجنسية الأنثوية المنفلتة من أي ضابط. فقبل حواء، «خلق الله الإنسان ذكراً وأنثى» ويقول

(1) أحد أسفار الكتاب المقدس/ العهد القديم (المترجم).

«ياهفيه»: «تكاثروا» (التكوين، الإصحاح الأول، 28). وتأتي مع حواء في ذات الوقت، المرأة، والمتعة (تحارب «سأم وضجر» آدم) والجانب الجنسي هنا، أنه لا يوجد قبلاً إلا إناث منذورة لسرمدية النوع. وتعدد القرون الوسطى صوراً للجنس ليس إلا «مفطور إلى أبعد حد لأن يستسلم لتغرير ابليس».ساحرة، مفسِدة الأخلاق، غاوية، دسّاسة وأخيراً... هنا بالذات يصدق الرجال أنفسهم بأنهم في أمان بسلطتهم، فيما في الخفية هن يحكمن. فالقانون الإلهي أبعدهن عن الوظيفة الكهنوتية،ومع ذلك، يكتب «جان كريز وستوم»، «يتسمن بتلك القدرة التي تمكنهن حتى من اختيار الكهنة الذين يردنهم»[1] وبعد قرون خلت، ظهر الانتقاد نفسه ثانية، يحمل لواءه هذه المرة ثوار عام 1789 منددين بالنظام القديم «الحكم الليلي للنساء» يتحدى جنس النساء حتى قدرة الرب: الرب القادر على كل شيئ «هل يتمكن من إنهاض العذراء بعد السقوط؟» تساءل القديس «جيروم». هناك شك! على اللاهوتيين الاستعانة بكل مصادر الدهاء لوضع العذراء مريم في مأمن من الظنون، الولادة تحيّرهم، وتجاوز الطفل للجنس الأمومي يشكل لهم تصورات لا تحتمل، وبصريح العبارة، في اللاشعور، ليس نادراً أن تمثل الولادة الجماع الزاني، بقلب بسيط للحركة، وإزاحة للجزء من الكل. ولتدارك الأشكال، أكدوا العذرية حتى في الولادة: «المهبل والرحم مغلقان»[2].

---

(1) Cf. M.Alexandre, De l’annonce du royaume à l’Eglise, in Histoire des femmes,t. II,op. cit. P. 466.

(2) J. Dalarun, Regards de clercs, in Histoire des femmes, t,II, op. cit P. 41.

وكما يقول «تيرتوليان»: «أيتها المرأة أنت بوابة إبليس» لن يقول طب العصر الكلاسيكي أبعد من ذلك: كيف نفهم استسلام المرأة لرغبتها، وفي تقبلها «الاقتران»، رغم المضايقات والآلام (من حمل وولادة) التي تتعرض لها على إثر ذلك الاقتران؟ هناك تفسير وحيد: إنه «شبق» قوي، أكثر بكثير مما هو عند الرجل، ورغبة في «ملء وحجب فراغ طالما مقتته الطبيعة»[1]. ويقول «ديدرو» إن النساء «من الداخل وحوش حقيقية» أعضاء اللذة عندها متعددة، البظر (الملقب بـ «احتقار الرجال»)، والمهبل، والرحم الشره... وفكرة تقليص هذا العدد تبدو قديمة أكثر من علم الطب، فاستئصال الشفرين الصغيرين وبتر البظر غايتهما الشفاء من «قلة الحشمة». وهكذا وعلى مر قرون عديدة، وُضعت جنسية النساء تحت المراقبة الطبية، بما فيها أيامنا هذه. ولقد تغيرت الرسالة بالتأكيد منذ الوصايا القمعية في القرن التاسع عشر: «سرطانات النساء من نِعَم الحب» هوذا كان عنوان مجلة أنثوية. نعود لنجدد عطف «أبيقراط» الذي كان يذكر أن المعاشرة الجنسية مؤاتية للنساء (شريطة عدم الإفراط فيها)، لأنه يسمح بـ «إجلاء الخلائط السائلة». والأهم من التنوعات التاريخية هو المثابرة الطبية الصحية منذ تحريض النزوع الجنسي الأنثوي. وهو بالتأكيد شأن من شؤون المراقبة الاجتماعية. إنما ليس فقط، نوعية القلق الأنثوي (لنا عودة إلى هذه النقطة) يجعل من الطبيب محاوراً مميزاً بالنسبة للمرأة.

---

(1) Y. Knibiehler et C. Fouquet, op. cit P. 170.

كم من الرجال يجابهون «الهياجات الرحمية» هكذا؟ وعلى حد قول «رابليه»: «لا تنذهلوا إذا كنا في خطر أبدي في أن نكون أزواجاً مخدوعين ونحن لا نملك دوماً ما ندفع به ونرضي به اكتفاءنا». ورغم هذه المخاطر، يبقى الزواج بالنسبة للقرون الوسطى وبضع قرون أعقبتها أفضل وسيلة لمجابهة الخطر، ما لم نحرك الماء الراكد، فـ «جذوة واحدة في جسدهن، تولد مائة». ومن المناسب إذاً أخذ المرأة كما هي، باردة في وفائها وبراءتها من الصبيب والتدفق، ودون تسخينها[1].

لعل الإسهام الذكوري، في هذه الصورة، لنزوع أنثوي لا يشبع، لا يدع مجالاً للشك، يأتي في المقام الأول من قلق الخصاء، مقيماً خطراً بحجمه[2]. هل هنا يكمن السبب الوحيد؟ هناك دليل حالي يفسح المجال للشك في ذلك، حيث ساندت المختصة في علم الجنس «ماري جان شيرفي» الأمريكية الجنسية، فكرة أن اللذة عند المرأة، وريثة «الطاقة النعوظية (الذروية) الفائقة الحد لبعض الأناث الأوليات» طاقة «أسست لاحتقان وورم حوضي صاعق» لتصعق من؟ فالتخيل الوهمي في الإخصاء لا يعفي حتى الأخصائيات بالجنس. والحل الذي تضعه «م.ج. شيرفي» للبرودة الجنسية ذو بساطة محيّرة: ممارسات متكررة ومطوّلة للجماع[3]! وفي عمق المعطيات

(1) Duby, Mâle Moyen Age, De l'amour et autres essais, Flammarion, 1988, P. 42.

(2) Sur la problématique de la castration, cf. l'exellent «Que sais_ je?» de A. Green, Le complexe de castraction, PUF,1976.

(3) Nature et évolution de la sexualité féminine, PUF, 1976.

الموضوعية الواضحة (الزمنية المختلفة للجنسية الذكورية والأنثوية، بما فيها الوصول إلى الذروة)، تنمو برهنة ومحاججة متغلغلة في كل لحظة بالتخيل الذي، تحت غطاء العلمية، لا يضيف شيئاً عما تدعمه «تيريزياس» أو عما يبرهنه أتباع «أرسطو» في القرون الوسطى: «الإفراط في رطوبة جسد المرأة يعطيها طاقة لا حدود لها عند القيام بالفعل الجنسي» التعب لا يعني الشبع[1]. ولعل الشواهد التاريخية الأنثوية حول المغالاة في الحب نادرة لكنها موجودة، في الترجمات المتصوفة. حيث تكتب الراهبة السيستيرسية «بياتريس دي نازاريت»، واصفة «الإثمار»، أو الاتحاد الحميمي مع الله:

«وفي لحظة من اللحظات، أضاع الحب عند هذه النقطة كل الضوابط، ، لقد انبثق بكسر وتحطيم ما، وبتحريك للعواطف قوي جداً، بحيث يبدو هنا القلب مجروح من كل ناحية. وبدا لها أن أضلاعها تخور، وصدرها ينفجر، وحلقها يجف، ويحس وجهها وكل أعضائها بالجرح الداخلي والغضب المطلق للحب».

بين الصوفية والرب، الحب هو كـ «أحد يخترق الآخر اختراقاً كاملاً» (رقصة جزر الأنتيل لـ هاد جويج دانفير). الآلهة، القضيب المنتصب العالي الشأن لدرجة مثالية يتم تلقيه بصورة فموية:

«القربان الذي تلقته في فمها راح ينمو لدرجة ملأ فمها برمته. ومن خلال الاضطراب الكبير الذي أحست به حين شعرت بامتلاء

(1) Cf. C. Thomasset, De la nature féminine, in Histoire des femmes, t.II , op. cit. P. 74.

فمها، قرّبت يدها وأوشكت تسحبه من فمها. إنما بدا لها أني لا أعرف من سحبه نحو الوراء، ووجدت في ذلك منقذاً للحم والدم. فيما لا يجرؤ أي امرىء عن سرد الخوف الكبير الذي تملّكها» (الراهبة بياتريس دورماسيو)[1].

بيد أنه هل تسلم كتابات الصوفيين بذلك لتكون نصوصاً عظيمة يُذكر فيها النزوع الجنسي الأنثوي تحت غطاء من الحياة الدينية، لبلوغ تعبير أكثر صفاء، كما حصل بعد «لاكان» حيث استطاع التفكير بذلك؟ إنه في الإعراض بسرعة تقريبية عن الوضوح، كغياب الرجل، وطبيعة المثلية الجنسية (سواء كانت كامنة أم لا) في الرباط الدستوري المكوِّن لتلك المجموعات من النساء. وإسباغ الكمال المثالي للقضيب يتماشى مع تجنب الاختراق. وعلينا ألا نخلط إذاً بين مصير ما للحياة الدافعية والنزوع الجنسي الأنثوي في كليته.

(1) Cf. D.Régnier - Bohler, Voix littéraires, voix mystiques, in Histoire des femmes,t. II, op.cit, P.485 sq.

الفصل الثاني

نظرية فرويد

من إيمي إلى دورا مروراً بـ لوسي وكاترينا وغيرهن، حقق التحليل النفسي أولى خطاه في انتزاع الحب من أسماء تلك النساء. وبنفس الوقت الذي تشكل فيه النساء أساس زبائن فرويد، تفرض الهستيريا نفسها كـ «نموذج لكل عصاب نفسي». لأنها تجمع بين «الكبت الجنسي الذي يتجاوز الحد الطبيعي» والتقزز منه وبين «نمو فائق الحد للدافع الجنسي»[1]، فالمرأة الهستيرية هي تلك التي بنفس الحركة «تخفض تنورتها مع الإصرار على إظهار ساقيها» وشكلت بالنسبة لمؤسس علم التحليل النفسي دليلاً بقدر ما هي أداة. ومع ذلك، اتخذت دوماً التطورات العامة لنظرية التحليل النفسي، على الأقل عام 1923، كأساس النزوع الجنسي النفسي للفتى. وفكرة الجمع بين الجنس (ذكر وأنثى) والنوع، وبين الرجل والإنسان، سيتم المحافظة عليها مع سياق المؤلَّف، فالنزوع الجنسي الذكوري لن يكون أبداً أداة لعلاج معزول، الأنوثة فقط، في ذهن فرويد، تستدعي التحديد. ولعل فكرة جذع مشترك للجنسين، إلى القول برجولية

(1) Freud, Trois essais sur la théorie sexuelle, op. cit. P. 78.

الليبيدو نفسها (وتعني الليبيدو طاقة الدافع الجنسي)، تنظم صيغة الدراسات الفرويدية حول النزوع الجنسي الأنثوي.

خروجاً عن النصوص المكرسة للأنوثة، هناك عبارات أخرى حول الموضوع نفسه، قديمة جداً، وبالكاد أن تكون مصاغة، والتي تأتي على تعقيد التصور الواضح الذي تقدمه النظرية الواضحة. فهناك عدة فرويديات في فرويد، وهذا الالتباس يسهم إلى أبعد مدى، في الإغناء الحالي دوماً عند قراءتها. وفي هذا الفصل، سنقتصر على أساس المبدأ، المنسَّق وفقاً لأولية القضيب المنتصب، وهناك إسهامات من بعض المساعدين المقرّبين لفرويد مثل: «كارل أبراهام وجان لامبل دي غروت وروث ماك برونسويك».

أولاً ـ حضارة الميسين[1]

من خضع لتجربة التحليل النفسي يعلم أن اللاشعور يبرز في كثير من الأحيان وكأن الوضوح يفرض نفسه، ومن يفقأ عينيه يصبح بالنهاية مبصراً، وعلى العكس، فعمى أوديب وتيريزياس يعد كناية عن الكبت (وكذلك الإخصاء،بالطبع) وعدم رؤية ما هو ساطع مطلقاً. ما هو إذاً العنصر الجديد الذي يقرر فرويد معالجته في الأنوثة كمجال منفصل؟ إنه اكتشاف الفتاة الصغيرة والفتى الصغير، «إن الأم المسؤولة عن الرعاية الأولى هي الأداة الأولى»، لأن الانتهازات الشبقية الأولية تحصل بمساندة إشباع الحاجات الحياتية الكبرى.

(1) ميسين هي عاصمة الأرغوليد في حقبة من تاريخ كريت، تقع ما بين 3000 ـ 1100 قبل الميلاد (المترجم).

خروج الصلة الأولى للبنت بالأم إلى النور يعني لفرويد، عالم الآثار، ما يُقارن بحضارة «مينوس وميسين»، التي ظلت حتى وقت طويل مشكوك فيها تحت روائع «أثينا». كما تشهد المعاينة السريرية، أننا نجد لدى امرأة ما علاقة استثنائية خاصة بالأم، بل شديدة وشغوفة، وينبغي القبول بها: «عدد ما من الكائنات الأنثوية يبقى معلقاً بصلتهن الأصلية مع الأم ولا يبادرن أبداً إلى تحويلها بصورة حقيقية نحو الرجل»(1) فبين التاريخ الأوديبي للفتاة (الذي يُكتب مع الأب) وما قبل تاريخ العقدة (الذي يحدث بين الأم والبنت)، الانفصال قاسٍ، ومختلف جداً عن الاستمرارية التي تسم النمو الجنسي النفسي للفتى، كيف ولماذا يتم الانفكاك مع الأم؟ وكيف تجد الفتاة سبيلها نحو الأب؟ إنها أسئلة تحاول نظرية فرويد حول النزوع الجنسي الأنثوي الإجابة عنها. إلامَ ترجع هذه السنوات من التعمية لمؤسس التحليل النفسي؟ إلى نقطة ارتكاز في العمل التحليلي، أي للاشعور غير المحلل، كما ترجع إلى المكبوت ويقول: «لا أحب أن أكون الأم في (الترحيل)». ويعترف أنه يدين

---

(1) Sur la sexualité féminine, in La vie sexuelle, op. cit. P. 140. Les autres texes de Freud servant ici de référence sont principalement : La féminité (1933) (in Nouvelles conférences d'introduction à la psychanalyse, Gallimard, 1984) Le déclin du complexe d'Œudipe (1923), Quelques conséquences psychique de la différence anatomique entre les sexes (1925). Ces deux deniers textes se trouvent également dans le recueil: La vie sexuelles. Cependant, nous les citons dans la nouvelles traduction, celles des Œuvres compètes (OCF P), PUF,vol. XVII, 1992.

النساء المحلّلات (ويُذكر منهن «ج. لامبل دي غروت» و «هيلين دوتش») على إزالة التعمية المتأخرة.

وبوصفه النشاط الجنسي للفتاة في علاقتها مع أمها، يدعم فرويد أنها لا تتميز بتاتاً عن نشاط الفتى. فكلاهما يتلاقيان بنفس أسس الدافعية (الفموية، السادية الشرجية، والقضيبية الانتصابية) وبنفس الأهواء التخيلية المشتركة، مع تحفظ واحد، يذكره فرويد، في أن صلة الفتاة بالأم في هذه النقطة «تبيِّضها السنين» كما تخضع هذه الصلة إلى كبت لا يرحم على نحو خاص، ولعل من العسير النيل منها من خلال التحليل النفسي، وفي جميع الأحوال، ليس ذلك مُتاحاً إلا من خلال إعادة الكتابة التي تجعلها تعاني لاحقاً من المسألة الأوديبية. كما يضاف للتحفظ فرقاً طفيفاً، حيث سلَّط فرويد الضوء، بصورة خاصة، على التناقض الوجداني لهذه الصلة الأولى، وعلى العدائية التي تكون الأم أداتها، أو على الأقل، أقوى من الحب الذي يوجَّه إليها. لماذا يُشار على الفور إلى التناقض الوجداني؟ لا يجيب فرويد بشيء، ربما بسبب عيب في مواجهة وجهة النظر الذاتية الداخلية. إن اللاشعور الأمومي (والأبوي) هو الغائب الأكبر عن نصوص الأنوثة هذه، والفترات الأولى من الحياة الجنسية تشير إليها العلاقة اللاشعورية للأم بالبنت سواء بسواء، كما أن مسألة التناقض الوجداني لا يمكن فصلها عن التصورات اللاشعورية الأمومية. وفي المرحلة الفموية، تتوافق لدى الفتاة الصغيرة، حالات القلق من أن تقتلها أمها أو تسممها أو تفترسها مع كل المخاوف المرتبطة بالاستجرار من الثدي وبرد العدائية للمعتدي. ومن الممكن، كما يذكر فرويد، أن هذه الآليات الموضوعية تشكل نواة جنون العظمة أو الاضطهاد اللاحق.

وفي المرحلة الشرجية، ترتبط اللذة بمختلف أسباب المس في مناطق التهيج الجنسي بقدر ما يعبر عن شيئ ما إضافة لمعناه الأولي كعدائي (بصورة أساسية، بصيغة سلبية، إنما كذلك في النشاط والإيجابية، بالتماهي مع الأم)، مع كامل الاستعداد لأن يتحول إلى قلق بفعل الكبت. ويضع فرويد التصميم الأولي اوجه أم شرجية، مستعيراً هنا من «ر. ماك برونسويك»، فهو تطفلي أكثر منه مُشبع، وسنتطرّق لذلك فيما بعد.

ومع الدخول في المرحلة القضيبية، سوف تأخذ «ذاتية» تطورات الفتى والفتاة، في التصور الفرويدي، أهميتها النفسية الجنسية الأكثر أصالة والأكثر إدهاشاً. وفي تلك الفترة «تُمحى اختلافات الجنسين تماماً على خلفية توافقهما»[1] .«**فالفتاة الصغيرة هي رجل صغير**». ولم يعبّر فرويد بأي جملة بالوضوح الذي عبّر به عن هذا اليقين وهذا الاقتناع بجذع رجولي مشترك للحياة الجنسية المسبقة، والتماثل ما بين القضيب والبظر لم يكن متأكداً بنفس السياق كتماثل الفم والشرج بالنسبة للجنسين، إنما التباعد قابلاً للإهمال بقدر ما يتأثر العضوان بطريقة مشابهة إزاء التهيج والإثارة: «حميع الأفعال الاستمنائية للفتاة الصغيرة يتم اللهو بها على قدم المساواة مع القضيب». كان المهبل، ذو الخاصية الأنثوية، ينتظر مرحلة البلوغ ليكون مكتشِفاً. ومن بين التخيلات المشتركة للتهيج البظري، يذكر فرويد أمنية إنجاب طفل للأم أو أن يكون (أمنية تُثار، على نحو خاص، عند ولادة مولودٍ ثانٍ بعد أخيه البكر) إنما

---

(1) La féminité, op. cit, P. 158.

ذلك التخيل سلبي أيضاً في أن يكون ذا إثارة لها، إنه تخيل «يمس أرض الواقع» طالما أن الأم، عندما تقوم بأفعال الرعاية والاعتناء، توقظ الأحاسيس الأولى للذة عند الأعضاء التناسلية.

التشديد على العدائية أكثر من الحب يثير للصلة الأولى هذه تصوراً لكثير من الشكاوى والمهاترات - والتي تكون علاقة المرأة الراشدة بأمها تكراراً لها في معظم الأحيان - وتؤدي الشكاوى المتراكمة إلى الانفكاك عن الأداة الأولية. فما هي هذه الشكاوى؟

اللوم الذي يأتي فيما بعد، يقوم على أن الأم لم تقدم الحليب الكافي للطفل، ويترجم هذا العجز كنقصٍ في الحب. كل مرجعية لواقع الحاجة قد تبتعد هنا عن الجوهر والأساس، الذي هو جشع الشبق الطفولي، وتسلل المسائل الجنسية في سجل الحفظ الذاتي. ويمكن للحاجة أن تعود للظهور، حيث الفعل الجنسي نهم لا يمكن إشباعه. وتنبثق وتظهر الشكوى التالية عند ظهور مولودٍ جديد، والذي يجب الاشتراك معه بما يصعب اقتسامه وهو الحب الأمومي. وهناك مصدر زاخر آخر للعدائية تجاه الأم يظهر خلال المرحلة القضيبية، عندما تحرم تطاول الطفلة على المساس بالبظر في الوقت الذي ساقتها هي إلى هذا التهيج. وتحريم ما وقعت نفسها به حيث القدوة تصبح طغياناً.

ولعل هناك ما يحملنا على الاعتقاد بأن هذا التراكم من اللوم يكفي لتحويل الفتاة عن الأم. وهناك اعتراض على ذلك، فالتراكم نفسه للإهانات والإحباطات التي تلحق بالفتى، لا تكفي لإبعاده عن الأداة الأمومية. وبالمقابل هناك عامل مقتصر على الفتاة الصغيرة التي تقرر، بصورة مؤكدة أكثر من أي عامل آخر، الانفكاك وتغذية

الكراهية، «فالأم هي المسؤولة عن تزويدها بعضو تناسلي وحيد،وعن نقص القضيب، وعن هذا الغبن الذي لا يُغتفر».

ثانياً ـ رغبة القضيب

كتجربة مرئية، يصف فرويد انطلاق رغبة القضيب،من حيث تلاحظ الفتاة الصغيرة أن «قضيب الأخ أو رفيق اللعب» يُرى بطريقة لافتة ومحجمة تماماً، وسرعان ما تتعرف عليه كبديل أعلى شأناً من عضوها الخاص،المخفي والصغير،ومنذ ذلك الحين ترزح تحت وطأة رغبة القضيب»[1]. ولدى رؤيتها ذلك، تعلم أن هذا الشيئ، ترغبه ولا تملكه. فإذا كان أصل الطفل هو السؤال الملحّ والأكثر تقصياً بالنسبة للفتى، فلغز الفارق بين الجنسين هو ما يثير الفتاة الصغيرة، كلٌّ مدفوعٌ في فضوليته نحو الشيئ الذي يشعر أنه لا يستطيع استحواذه.

ضحية، مجروحة في صميم كبريائها، إنه شعور بالدونية يستقر في نفس الفتاة والمرأة حينما تتعرف على «جرحها النرجسي» ومن هنا تشارك الرجل في احتقاره لهذا الجنس الضامر، وباختصار، المخصي، ليس هناك إلا خطوة، وأحياناً يتم تجاوزها.

وفي هذا المرور من الخاص الذي هو(غياب القضيب والذي يُعاش كعقاب شخصي) إلى العام في أن (النساء لا يملكنه) تقع تجربة لها أهمية نفسية كبيرة. وفي مقالة لـ «ر.ماك برونسويك»، صيغت في جدال مع فرويد، نجد فيها الإصرار الأول على اكتشاف

(1) Quelques conséquences..., op. cit., P. 195.

«إخصاء الأم. فالنتيجة منها ليس فقط الانتقاص والحط من أداة الحب، إنما أيضاً التحطيم الحاسم «لآمال الفتاة في عدم الامتلاك الدائم للقضيب»[1]. ويلفت «ر. ماك برونسويك» النظر أيضاً بطريقة صائبة وسديدة أن تخيل أم قضيبية (صورة تثير الارتياب، وريثة الأمهات الكليات القدرة، فموياً وشرجياً) «تظهر في لحظة من اللحظات تحس فيها الطفلة بعدم اليقين لما يخص امتلاك الأم الفعلي للقضيب».

ويذكر فرويد أن رغبة القضيب تترك في الحياة الجنسية النفسية للنساء آثاراً لا تُمحى، ولا يمكن تخطيها دون بذل نفسي شديد الوطأة. فالغيرة، وهي سمة أنثوية مُهيمنة، قد تستمد جذورها من تلك الرغبة. وغالباً ما تُستعاد الفكرة، إنما بصورة عامة، لكي تشير إلى المركب في مرحلة ما قبل التناسلية، حيث الغيرة تثير الشراهة الفموية أو الميل الشرجي من أجل الامتلاك والحيازة. ومن ناحية أخرى نتساءل، حينما تسيطر الرغبة والحسد على حياة المرأة الراشدة، ألا يعود ذلك إلى مرحلة جنسية غير مهيأة، ما قبل التناسلية، من أن يعود إلى بقايا المرحلة القضيبية؟

ومن وجهة نظر التاريخ النفسي، تكون النتيجة الرئيسية لرغبة القضيب، وفقاً لرأس فرويد، في «الانعتاق من العلاقة بالأم بصفتها أداة» ويُدخِل «جان لامبل دي غروت» على هذه الناحية صبغة مثيرة

(1) La phase préoedipienne du développement de la libido (1940), Revue française de psychanalyse, 1967, n°2 , P. 276.

للاهتمام تماماً. فرغبة امتلاك قضيب يساهم بالارتباط بالأم قبل أن يؤدي إلى الانفصال عنها: «التصرف بقضيب لإمتاع الأم»[1] يخضع في معظم الأحيان لكبت جذري، ويصبح هذا التخيل، عندما تتثبت الحياة الجنسية النفسية عليه، نقطة ارتكاز للمثلية الجنسية الأنثوية.

يضع الاستمناء الأنثوي (سواء للفتاة الصغيرة، أو المراهقة، أو الراشدة) التحليل النفسي في حالة من الارتباك والحيرة، فيما يخص أيضاً «الجهل» الذي يكون أحياناً أداة ذات صيغ مختلفة للتحقيق (اليد أو ضغط الفخذين). أما الكبت الفعال الذي يمكن بلوغه هو بالنسبة لفرويد مرتبط ارتباطاً مباشراً بالمذلة المرتبطة بشهوة القضيب: إذا «كانت المرأة تتحمل،بصورة عامة، ألم الاستمناء أكثر من الرجل، فإنها تتمرد عليه وتصبح غير قادرة على استنفاذه حتى النهاية»، أي أن الفتاة الصغيرة لم تستطع الصمود ومواجهة الفتى في هذه النقطة وتُحجم عن منافسته. فالأداة الأم والاستمناء القضيبي هما في هذه النقطة مرتبطان، ويحدد «ر. ماك برونسويك» بأن فقدان أحدهما يؤدي لفقدان الآخر.

حفنة من تصورات التحليل النفسي،كرغبة القضيب، أثارت سجالات ومناظرات. كما ينبغي ألا نخدع أنفسنا بالنقاش. فالسؤال المطروح ليس في وجود رغبة ما أو عدمها. وإن كان ذلك ضرورياً أيضاً، فملاحظات «رواف غالنسون» أكدت الأفعال بصورة وافرة، بما في ذلك تعديل المعطيات، فالتجربة التي حددها فرويد بنحو

---

(1) Histoire du développement du complexe d' Œdipe chez la femme (1927), in Souffrance et jouissance,Aubier Montaigne ,1983.

ثلاث سنوات، أو أكثر، تشهد تظاهراتها الأولى بين 10 ـ 24 شهراً[1]. وبالأحرى المسألة هي كالتالي: أي مكانة تتخذها رغبة القضيب خلال التطور النفسي الجنسي للفتاة؟ وألا تشكل، كما يعتقد فرويد، الخطوة الأولى نحو الأنوثة؟ لندع الآن التساؤل مفتوحاً.

فمن بين التصورات التي تولدها رغبة القضيب، هنالك ما هو ذو فائدة خاصة، في آن واحد لغزارتها وللمكانة التي تحتلها عملياً في حياة المرأة برمتها، وحتى رسم شخصية «المرأة المخصية». في فيلم «د. آركاند» «انحدار الإمبراطورية الأمريكية» يعيدنا إلى ذلك بصورة مسلية. حيث نرى فيه مجموعة من النساء يتناقشن في المسبح، لتعداد الجمل التي تصلح لتوجيهها لرجل عندما يتوخين الانتقاص منه قليلاً، على سبيل المثال: «نعم، القصر لابأس لكن البرج الرئيسي يتساقط ركاماً!» الموضوع زاخر، والغاية نفسها دوماً: في الوقت نفسه، تجريح للجسد وامتلاك أداة بكل شهواتها. قد يكون القصد مجازي، يستهدف الكل ليصل إلى الجزء،كتلك المرأة في «المدينة الصابرة» لـ «ج. مكدوغال»، التي صاحت تعجباً أمام قارب معطّل، بحضور زوجها وأخذت مجموعة من الأصدقاء كشهود: «قد نحتاج لرجل». إنما يمكن للهجوم أن يتخذ شكلاً أكثر مباشرة، كأن تقول هذه الصبورة وهي تنهر رفيقها الذي تفصح بداية انتصابه عن إرادة مترددة: «كنت أعتقد أن هذا من أجل التبوّل»

وفي نص، تغلب فيه لمرة واحدة وجهة النظر الداخلية الذاتية،

---

(1) La naissance de l' identité sexuelle, PUF, 1987.

ينهمك فرويد ويستسلم في كتاب «محرم العذرية» 1918 لتحليل شغوف. ظاهرياً يُعرض محرم العذرية كاستيلاء للرجل على الحياة الجنسية للمرأة، وكدليل على امتلاك منحصر وخاص. وبشكل أكثر سرية، هو،على العكس، نتيجة لقلقه أمام ما يشعره تخيلاً مخصياً لدى المرأة: كالاحتفاظ بالقضيب في الداخل مستفيدة من الجماع الأول[1] فكرة العضة المترافقة، بصورة مألوفة، مع التهيج الفموي يعطي لهذا التخيل الترجمة الفموية. ويذكر فرويد استناداً لأطروحته حول الممارسات الطقسية التي يتكلف فيها، في بعض المجتمعات، شخص ثالث أقل تعرضاً من الزوج لخطر فض البكارة، وهو يثير كذلك ذكريات عدوانية لليلة العرس لدى مريضاته،وبصورة مستقلة، عن إبطال محرم العذرية، يستمر مثل هذا التخيل في صنع المألوف والعادي لتحليلات النساء.

إن مساهمة لاشعور الرجال، وبتحديد أكثر، قلقهم من الإخصاء، في بناء شخصية المرأة المخصية لا يدع مجالاً للشك. ويمكننا، عبر التاريخ الثقافي للبشرية، أن نضرب أمثلة على ذلك: ففي القرون الوسطى، يتساءل «ماليوس ماليفيكاروم»: «هل تتمكن الساحرات من الإيهام لدرجة الاعتقاد من أن العضو الرجولي يُختطف أو يُفصل عن الجسد؟» ومن ثم الإيجاب بنعم. لكن الفكرة الفرويدية التي وفقاً لها يستهدف الرجال تماماً ذلك المكان، أكدتها المعاينة السريرية جهاراً. وفي التعمق في محرم العذرية، يشير أبراهام هكذا إلى اعتيادية التخيلات المقابلة أو الثأرية لدى النساء.

---

(1) In La vie sexuelle , op. cit. P. 66 sq.

يستحق نص «ك. أبراهام عام 1921» حول مظاهر عقدة الإخصاء لدى المرأة[1]، أن نتوقف عنده لأن غناه السريري ورونقه لا غبار عليهما، حتى لو لم يُتح لنا إلا استرجاع صور خاطفة منه. والرغبة التي تتوق إليها الفتاة عند كشف الفتى عن عورته للتبوّل، يجد «أبراهام» أثراً لها في السلس البولي للمرأة (المترافق بحلم التبوّل بنفس الطريقة) وفي «الاستمتاع الشديد الذي تجده كثير عن النساء عند سقاية الحديقة بواسطة الخرطوم»، متممة بذلك مثالية رغبة طفولية. والميل الإخصائي بالنسبة لها، قد يُترجم في اختيار رجال سلبيين ومخنثين، أو أيضاً التستر بالبرودة الجنسية بغية تغرير الرجل وإحباطه، وإظهار عدم أهليته في الإرضاء والتلبية. ناهيك عن أن التخيل نفسه يتواجد بشكل سلبي لدى المرأة التي تتظاهر بالذروة، مجنبة الشريك ما قد يُفهم كإخصاء أو عجز عن الإشباع. وعند بعض النساء، كما يذكر «أبراهام»، يعود الرفض الملحوظ للأمومة لسخريتهن من أي شكل للبديل (القضيب الناقص). أو أيضاً، نزوع كثير من النساء لجعل الرجل «ينتظر»، وقد يكون ذلك طريقة للتقابل، حول الانتظار الإجباري الذي يكنّ به للانتصاب الذكري، بغية أن يكون الجماع متيسراً. وهناك استحقاق آخر لهذه المقالة، هي في الناحية التي مُنِحت للذاتية الداخلية وبالتحديد لعقدة إخصاء الأم في علاقتها مع ابنتها، حيث تحمل حياتها العاطفية أحياناً إشارة للذم والتحقير منذ الطفولة للنزوع الجنسي الأنثوي في الكلام الأمومي، ورفض الرجل الذي تنقله الأم سواء شعورياً أو لاشعورياً.

---

(1) In Œuvres complètes, 2, Payot, 1966.

لنختتم موضوعنا بالنتائج التي توصّل فرويد إليها عن الرغبة بالقضيب مستوحياً، مما يشكل له النمط الأنثوي في اختيار الأداة «الأكثر صفاء والأكثر أصالة»[1] وتستجيب المرأة الشابة للجرح النرجسي القضيبي، الذي يحييه من جديد نمو مرحلة البلوغ، بـ «التنمية الجمالية» نحو حالة تشعر فيها الفتاة بالاكتفاء الذاتي، مما يعوضها عن حرية الاختيار التي يرفضها المجتمع،وما وراء هذا الباعث، يظهر نقص وسيلة هذه الحرية وهي القضيبية التي تعوضها ببريق وبهاء جمالها، فالجسد برمته يعادل الجزء الناقص. مثل اولئك النساء «لا يحببن إلا أنفسهن حصراً»، وحاجتهن تجعلهن يملن لأن يكنّ حبيبات ويعجبن بالرجل الذي يلبي لهن هذه الناحية. ولهن السحر الذي لا يمكن بلوغه سحر «القطط والحيوانات الكبيرة الضحية» والرجل الذي يُفتَن في بادىء الأمر لن يتوانى عن الشك بحب تلك التي مكثت «باردة» تجاهه. باردة وصعبة الاختراق، تلك هي توقعات المنطق القضيبي الذي يهيمن «بصورة صافية» على حياة المرأة.

تُعد شخصية المرأة هذه نرجسية بقدر ما تكون مشؤومة، وهي شخصية لطالما تطرَّق لها أدب التحليل النفسي، «وينيكوت» على سبيل الذكر، بعبارات تتقارب مع عبارات فرويد. وفي طابع قريب، يظل مع ذلك التصوّر الفرويدي وراثي باطني. فيما المصادر الوراثية الخارجية، هي،على العكس، موضوعة مقدماً من قبل كتّاب ما بعد الفرويدية، والتي تشير إلى الدور الذي يلعبه قلق إخصاء الأب في

(1) Pour introduire le narcissisme (1914), in La vie sexuelle, op.cit., P. 94.

قصة ما (على نمط: «كم هي جميلة ابنتي»، وبصورة لاشعورية غير مسموعة، إنه لا يلتهف لي)، أو بعقدة إخصاء الأم. وليس من النادر أنّ نرجسية المرأة تكون الوريثة للاستثمار المضاد للأم في إحباطها، عندما تنجب بنتاً بدلاً من صبي مأمول.

يبقى سؤال: هل يتعلق الأمر تماماً بالنمط الأنثوي الأكثر نقاوة وأصالة؟ ليس صحيحاً إلا تصور شهوة القضيب كفترة تتأسس الأنوثة فيها.

ثالثاً ـ الانعطاف نحو الأب

لابد من أن تتغير الأمور تماماً، فالارتباط بالأم، القوي أيضاً، يمهد السبيل للتعلق بالأب، ويصبح أول أداة للحب. حيث تتعلق به إمكانية المراة في الالتقاء بالرجل الأداة خلال حياتها الجنسية والعاطفية. وذلك يجب أن يحدث هكذا، إذ كرره فرويد عدة مرات، وكان ذلك لفرض الاقتناع به. فنظرية الأنوثة التي يدعمها، ترتكز على خلل ما بين العلاقة الأولى والتوظيف الأوديبي، بحيث تصبح إشكالية، في وجودها نفسه. ووفقاً لفرويد، تتجه الفتاة نحو الأب أقل مما ترتد عن الأم. وبأي طريقة! في الكراهية، في أعقاب جرح نرجسي وبحركة كبت (من الذكورية الأصلية). وفي هروبها تسقط بين ذراعي والدها «مُبعَدة من العلاقة بالأم» تستعجل الفتاة الصغيرة «الدخول في الموقف الأوديبي وكأنها ترسو في المرفأ»[1]. ويحس فرويد تمام الإحساس بأن التكوين الذي يقترحه لحب الفتاة للأب،

---

(1) La féminité, op. cit., P. 173.

وما ورائية التوظيف التبادلي الجنسي للمرأة، يجعل من الصعب إدراك قوة الصلة التي تشهد بها المعاينة السريرية، والتي لا تنتظر التحليل النفسي لكي يلاحظها ويصفها. وفي الارتداد عن العلاقة بالأم ينضم عامل إيجابي، هو في دفع الفتاة للإلتفاف حول والدها: «فالانتقال إلى الأب كأداة، يتم بمؤازرة الميول السلبية ضمن الإطار الذي تبتعد به هذه الميول عن الكارثة»[1] ـ كارثة كبت الأحاسيس الجنسية برمتها، مؤدية إلى هجران الموقف الذكوري. فبأي سلبية يُناط الأمر، وبأي تخيلات تتغذى، ومن أي منطقة جنسية يتولد التهييج الموافق؟ كل ذلك يبقى غير مبتوت به، ومن نافل القول، يندرج بصورة سيئة في البناء الفرويدي ـ ولنا عودة على مسألة السلبية هذه، الأساسية والصعبة.

نصوص قليلة تتعلق بالأنوثة، تعطي الأب أهمية في هذه النقطة التافهة. فمعتقد فرويد، هو في أن الفتاة (وبالتالي المرأة) تكون وتظل في أعماقها، كائناً شبه أوديبي. ونتائج نظرية التحليل النفسي في مجملها تعد جديرة بالاعتبار، حيث إن «العلاقة المشؤومة للتزامن بين الحب لأحد الأبوين والكراهية للآخر، الذي يعد خصماً منافساً، لا تنشأ إلا بالنسبة للطفل الذكر» فالرهان على مقترح ما، لا يعد بأقل من اتخاذ، على بساط البحث، شمولية عقدة أوديب كنواة للحالات العصابية (نظراً لأن هذه الحالات لا تستثني المرأة، على عكس ما اعتقد فرويد ذاته.) وعلى هذا الخطر النظري، وربما أيضاً السريري، يرى فرويد مخرجين، لم يلتزم هو نفسه فيهما، يكمن الأول في

(1) Sur la sexualité féminine, op.cit. P. 144.

القول بأن الفتاة تدخل الأوديبية بشكل مقلوب، مثلي جنسي، للعقدة أي (حب للأم، وعدائية للأب)، إنه الدرب، الذي سلكه «ج. لامبل دي غروت»، إنما يذكر فرويد أنه لم يكن مقنعاً مطلقاً، لدرجة أن تمثيل الأب في البدايات هو أكثر من تمثيل لمعرقل بسيط من خصم منافس. ويكمن المخرج الثاني في امتداد عقدة أوديب إلى كل علاقات الطفلة مع الأبوين، إنه مسلك يخرج الأوديبية من مسار التاريخ في صالح سياق للعلاقات والروابط ستتبعها البنيوية في علم التحليل النفسي.

لعل البعد الإشكالي للأطروحة الفرويدية يتنامى أيضاً حينما نواجه المهمة الأخرى التي تُعزى للفتاة الصغيرة، ليست مطلقاً في تبديل الأداة، إنما في منطقة التهيج الجنسي. إن ذكر هذا المشروع المزدوج، تغيير الأداة وتغيير الجنس، يبدو أنه ينطلق من الذات. وعلى الفتاة أن تتحول من الأم نحو الأب، كالمهبل (الأنثوي المستقبِل) الذي عليه أن يستبدَل بالبظر (الذكري الإيجابي). لكن التمثيل الذي أجراه فرويد لهذا التبديل الأخير، هو الأقل غرابة ويشهد صداماً. فمن ناحية انتقال الإحساس الجنسي من البظر إلى المهبل يتصوره كأنه يحدث دون أثر. فالنمو نحو الأنوثة يفترض سلفاً استبعاد المنطقة البظرية! وليس بالضرورة أن يكون المرء محللاً نفسياً ليعلم، بخلاف فرويد، بأن التهيجية البظرية والمهبلية عند المرأة جمعية تراكمية وليست طرحية، عدا العزل الذي يُعزى للكبت. والعمل الثاني الفرويدي غير اللائق، هو في الإرجاع والإحالة إلى مرحلة البلوغ وإلى فيزيولوجية النزوع الجنسي، وبالتالي إلى تيقظ المهبل. يُقاس الجذب والقفر التناسلي والذي تترك به نظرية فرويد

الفتاة، ما بين بظر رجولي، مهجور لأنه «غير تام» وعلى صلة وثيقة بأداة الكراهية (الأم) ومهبل لن يُكتشف إلا بعد سنوات. وللطرح الفرويدي، المعزز بتهييئات «لاكان» مدافعوه دوماً، إنما ينبغي ملاحظة أنه لم يدعم أي محلل نفسي، فيما يتعلق بالعلاقات البظرية المهبلية وظهور الأحاسيس المهبلية، بالمعنى المنحصر، وجهة نظر الأب المؤسس.

وفي ظرف طريف ـ علماً أن الطرافة في علم التحليل النفسي لا تأخذ طابع البساطة أبداً ـ شهدت نظرية فرويد حول مناطق التهييج الجنسي مصيراً مفاجئاً، حيث أعطت المادة دفعاً قوياً تقريباً. ونحن ممتنون لـ «ماري بونابرت» بتأملاتها المثيرة حول النزوع الجنسي الأنثوي، وبالتحديد حول العشقية القذرة[1]. إذ شكلت برودتها الجنسية حافزاً هاماً، وربما حاسماً، بتقصياتها، ويبدو الشيئ ذاته بالنسبة لـ «هيلن دوتش» فليس هناك إلا من أُجري عليهن التحليل، للظن بأن ثمة أعراض يمكن أن يوفرها محللهن النفسي. كما كانت «ماري بونابرت» تجري عبوراً للتهييج البظري باتجاه المهبل كتمثيل تشريحي أكثر منه تخيلي، كمسافة للانتقال. وكانت مقتنعة مع فرويد بأن المهبل لا يمكن أن ينال اللذة إلا إذا تم التخلي تماماً عن البظر، وكانت ترى عائقاً جسدياً لهذا التبدل، في تكوين بعض النساء (والتي هي منهن)، واللواتي عندهن البظر الرجولي والمهبل الأنثوي متباعدان جداً أحدهما عن الآخر. ولماذا لا يتم تقريبهما؟ وخاصة إذا وُجد العرض الطبي لدى الطبيب النمساوي الجرّاح «هالبان». وهي مقتنعة بأنه هنا تكمن أسباب برودتها، فأجرت لنفسها عدة عمليات. هل هناك حاجة للتحديد بأن تجارب المقاربة لم يكن لها تأثير حاسم؟

---

(1) La sexualité féminine , «10/18». Cf. la biographie de Célia Bétrin, La dernière Bonaparte, ED. Pérrin,1982, P 241.

رابعاً ـ مصائر الأنوثة

وفقاً لفرويد، تدخل الفتاة الصغيرة في عقدة أوديب عند اكتشافها للإخصاء. وهناك ثلاثة اتجاهات للتنمية تتأتى من هذه الفترة التأسيسية. الاتجاه الأول يكون في الكبت والعصاب، وهو يقود إلى الانصراف، بصورة عامة، عن الأحاسيس الجنسية. حيث «تدع الفتاة نفسها تفسد التمتع بإحساسها الجنسي القضيبي تحت تأثير رغبة القضيب، بعد أن كانت تحيا بنمط ذكري، ألفت من خلاله اللذة عن طريق التهييج بالبظر ومارست هذا النشاط بالارتباط مع رغائبها الجنسية، بتوجهها نحو أمها». و «الكارثة» تأخذ معها كل شيئ: الاستمناء، والأم أداة الحب والمجلبة للانتصاب، وما بعد كل ذلك، النزوع الجنسي في مجمله. ولا يبقى من كل ذلك إلا التشكي والتظلّم. «هناك الكثير من النساء يعطيننا انطباعاً بأن نضجهن مليء بالمشاجرات مع أزواجهن» ذلك أنه الوريث ليس للعلاقة بالأب، إنما الحالة العدائية مع الأم. وحول هذه النقطة، كان فرويد ينطلق على نحو ما من نصيحة أن «جرت العادة على أن الزواج الثاني يكون أفضل»

يقود الاتجاه الثاني إلى عقدة الذكورية. إذ لا تتخلى الفتاة الصغيرة «بوثوق وقح، عن ذكوريتها المهددة». وفي تمرد طابعه التحدي، تفرط في صفات الرجولة (الزي وتصفيف الشعر إلخ..). ولعل التماهي بالأب الذي حرّضته الظروف، ليس بحد ذاته إلا تماهٍ ثانوي، والذي حل محل الأم القضيبية. ومن هذا الاستعراض الذكوري في اختيار الأداة المثلية الجنسية اللاحقة، يبدو السبيل راسخاً تماماً. غير أن فرويد في ذلك يدعو إلى الحذر، حيث تُشعِر

التجارب السريرية أن المثلية الجنسية الأنثوية نادراً ما تكون استمراراً بخط مستقيم للذكورية الطفولية، ومع ذلك يتولّد عنها شيئ ما. حيث إن النساء في حركاتهن «يلعبن بصورة واضحة دور الأم والطفل كما يلعبن دور الرجل والمرأة، وهذا يذكّر بأن هناك اختيارات للأداة كسائر الأطوار النفسية، حيث تصفها المبالغة في الثبات والتصميم.

ويتابع فرويد، بأن هذا المسلك الثاني، إن يتحدى النموذج فهو بالمقابل، يتوافق مع الضرورة التحريضية مع الجنس الأصلي الأولي ألا وهو، ذكورية الطفل. وتحجّم نظرية فرويد الأنوثة إلى تشكيل متأخر بقدر ما هو ثانوي، وفي جميع الأحوال، متفاعل بارتباطه بالنزوع الجنسي الأكثر أولية وبدائية.

أما الاتجاه الثالث فهو «متعرج جداً» وإن صح القول، فهو وثيق الصلة بين الاتجاهين الآخرين. إنه مسلك الأنوثة، بالمعنى الحصري، التي تقود من الأب كأداة للحب إلى اختيار أداة التبادلية الجنسية(اختلافية الجنس). ومن أي مصدر شبقي يمكنها أن تستمد جيداً، أمِن الذكورية الأصلية؟ فرويد ملزم تماماً بالعودة في ذلك إلى «مقترحات الدافعية السلبية»، دون أن تكون هذه النقطة الجوهرية معمّقة لديه، إلى حد أنه تعلق تعلقاً واهياً بالمحور المركزي للنظرية. ومن ناحية أخرى يكفي لفرويد أنه عرض بقليل من التفصيل ما سمعه عن «الأنوثة الطبيعية» لكي يلاحظ أنها محكومة بالرجولة الأولى. فالفتاة الصغيرة تنتظر القضيب من الأب الذي حجبته عنها أمها، إنها بهذا العزم والتصميم (الأوديبي في عمقه) تتجه نحوه. والقضيب الذي تنتظره هو قضيب ذاك الصبي الذي كانته، إنه بالتالي قضيب خارجي.

ولا يتأسس «الموقف الأنثوي»، بصورة حقيقية، إلا حين يتبدل تمني الطفلة إلى تمني القضيب، إنما مقولة «الطفل الأب» الارتكاز فيها هنا على الطفل وليس على الأب، و«الطفل» يعني الشكل البديل للقضيب المرغوب. أي سعادة تحصل المرأة عليها حينما تعلم بأن الولادة ذكر، إنه القضيب الذي طالما رغبته! فالأنوثة التي تواجهها بمشقة، تتلاشى، في ميراث الذكورية الأصلية. والمحصلة التي نرسو عليها، وفقاً لفرويد، تظهر، بصورة رئيسية، شرطاً لأحاسيس جنسية لأداة جزئية. فبين القضيب المرغوب، والطفل البديل، هناك طبعاً الرجل (وخلفه الأب)، إنما إذا كان الرجل «مقبولاً» فذلك لـ «اعتباره ملحق بقضيب»[1] ومن أجل هذا للجمهور في ذلك صيغٌ مبتذلة. ولقد تعودنا ـ ليس فقط المحللون النفسيون ـ على مقاطع تختص بالأحاسيس الجنسية الذكورية مثل: «لها نهدان، أو ساقان، أو مؤخرة..إلخ» ولكن أكثر تركيزاً للمعنى فـ «القضيب»، هو المقطع الذي تجريه المرأة وربما ليس أقل، اجتياحاً، إلى أن تلتحق بالأمومة كما هي. شيئ قليل الأهمية، بالفعل، يميز الأم «الفرويدية» بتحقيقها، من خلال حياة الطفل، الرغبة القديمة بالقضيب، وبتبجيلها ذلك الذي يعترف وينكر في آن واحد إخصاء الأم، ويفرض على المرأة أن تنهض بالدليل (تقليدياً: كالكعب الرفيع، وحمالة مطاط الجوارب..إلخ) بإلغاء الخلل بصورة خيالية. وفي وصفهما الأمومة كانحراف جنسي للمرأة، لم يقم «غرانوف و ف. بيرّييه» إلا

(1) Sur les transpositions de pulsions plus particulièrement dans l'érotisme anal (1917), in La vie sexuelle,op. cit. P. 108.

بتنمية المنطق النظري الفرويدي على هواهما[1].

لعل الاتجاهات الثلاث التي استخلصها فرويد هي وليدة عقدة الإخصاء الأنثوية. إنها الدخول في عقدة أوديب (أو رفض الدخول بها) التي تلعب دوراً محدَّداً. وعند الخروج منها، يقول فرويد على الأخص أنها تترك تصوراً سيئاً. فبالنسبة للفتى، حدة الصراع بين حب الأم وكراهية الأب يعطي مقياساً للقلق النفسي من الإخصاء، ومن خشية افتقاد القضيب. وعندما تُهجر وتُطرد وتُدمر عقدة أوديب تفسح المجال لأنا أعلى قاس، وريث التحريم الأبوي. لا نظير له عند الفتاة، وحيث أنها مخصية على الدوام فليس لديها شيئ تفتقده على الإطلاق. الحب الأوديبي للأب قد يمتد لمرحلة غير محددة، لكي لا يزول إلا بصورة متأخرة،وغير كاملة. ونتيجة «نقص» للقلق النفسي المتعلق بالإخصاء، لا يتخذ استبطان المحرمات الأبوية لديها شكلاً آمراً، فالقانون لديها ليس فارضاً أبداً كما هو لدى الفتى. ونظراً للدور الديناميكي للأنا الأعلى في النتاج الثقافي ـ عن طريق الإرغام في التحول، والتسامي الذي يمارسه على التوظيفات الجنسية ـ فإن الضعف وقلة الاستقلالية لهذه الفترة لدى المرأة تفسر مساهمتها الهزيلة في الإنجازات الثقافية.

ولن يدهشنا أن نقد الأنثى، الذي سنتطرق إليه لاحقاً، يجب أن يكون ذا حساسية خاصة لهذه الحجج، وقد يدفعها أحياناً لرمي الطفل مع مياه الحمام، وسيتبين ذلك في التحليل النفسي مع حكم فرويد.

---

(1) Le désir et le féminin (1960), Aubier- Montaigne 1979.

الفصل الثالث

ذبول وانتقادات النظرية الفرويدية

الفتاة الصغيرة هي رجل صغير... وهي في أعماقها لا تكف عن أن تكون كذلك. فيما المرحلة القضيبية هي، بالنسبة لفرويد، مصدر وحقيقة للأنوثة في آن واحد. ومن الرباط الأول بالأم وحتى المصائر الثلاثة الكبرى للأنوثة، مروراً بالتغيير المزدوج للأداة ولمنطقة التهيج الجنسي، تُطرح نظرية فرويد ككل لا يدع تلاحمها إلا مكاناً ضيقاً للشك وعدم اليقين. ومع ذلك... في نص قصير عام1923 ـ وهو أيضاً تاريخ للتهييئات الأولى المتعلقة بالأنوثة ـ حيث عرض فرويد بوضوح تام أطروحته عن أولية القضيب: «بالنسبة للجنسين، هناك عضو تناسلي واحد، العضو الذكري، يلعب دوره. إذاً ليست هناك أولية تناسلية، إنما أولية في القضيب»[1] ومراعاة للنزوع الجنسي الأنثوي، لا تتخذ هذه المرحلة كل اتجاهاتها إلا إذا لم نهمل تسمية تلك التي تليها مباشرة: «لسوء الحظ لا نستطيع وصف هذه الحالة على أنها تخص الطفل الذكر، فيفوتنا ذكاء الأطوار المتطابقة للفتاة الصغيرة». وتمضي أقاويل أخرى في نفس الاتجاه، مشيرة للسمة

---

(1) L'organisation génitale infantile, OCF P, XVI, PUF, 1991, P. 306.

«الغامضة والناقصة» للأدوات السريرية الأنثوية أو «القارة السمراء» التي تشكلها الحياة الجنسية للفتاة وللمرأة بالنسبة للمحلل النفسي.

هذا الاعتراف بالجهل لا يسبق عرض النظرية لكي يتلاشى بهذا العرض، بل إنه يصاحبها. لعل اختيار مفردات: حالك وغامض وناقص تمس الشيئ نفسه، إنه جنس الأنثى والقلق النفسي لإخصاء ذلك الذي يدنو منها أو يفرط في سبرها في آن واحد. فعبارة «القارة السمراء» مأخوذة عن عنوان كتاب لـ «ستانلي»، حول مكتشف الغابة الأفريقية، العذراء، العدائية التي لا يمكن اختراقها. وهكذا تماشت مع خطاب فرويد، براهين وأدلة مبنية بناء متيناً، للمناسبة الدوغماتية - يكفي أن نقرأ بعض الأسطر المهملة والمتوافقة مع المنددين عند نهاية مقالتين عام 1931 و1933 - والالتباس الحقيقي. ونعني بذلك، أن الثلاثين عاماً التي جرت قبل أن تصبح الأنوثة مقصداً له مراعاته الخاصة، لم تكن أعواماً بلا امرأة، كما لم تكن بلا نظرية متضمنة النزوع الجنسي الأنثوي. وحينما نجمع عناصر هذه النظرية غير الموضوعة بتاتاً، بصورة حقيقية، ولا بالتشكيل الواضح، نلاحظ أن فرويد لم يكن في منأى عن كونه الناقد الأكثر قسوة لفرويد. ومن الممكن أن الالتباس حافظ على صداه في التنظير الأول.

إن الأطروحة التي تركز على القضيبية، والمقدَّمة في الفصل السابق كانت محط انتقادات متعددة وأحياناً لاذعة. ولعل فرويد لم يقم إلا بتنظير الأحكام المسبقة والبرجوازية لعصره والتي تقر بتفوق الرجل على المرأة. فالمتابعة وحتى النقاط على الحروف للخط

الفرويدي الموجّه لـ «لاكان»، وفي أزمنة متميزة، بنزاع لأنماط سياسية ذكورية وجنسية الهيمنة. نادت بنقد أكثر تبصراً. وكانت أداة التحليل النفسي هي اللاشعور، وإنها فقط انطلاقاً من تحليل هذه الأداة أمكن توجيه اعتراضات لفرويد. فاللاشعور ليس ديمقراطياً وليس مقِراً بالمساواة، كما هو أصم تجاه أي إعادة ترشيد. إضافة لأنه مهما كانت التصورات اللاشعورية للأنوثة التي سنبرزها كـ (فوهيّة تحديداً وليست قضيبية مطلقاً). فستبقى على اعتبارها لاشعورية «غير مقبولة». ويمكننا اعتبار أن الطرح الفرويدي المتمركز على القضيبية ينقصه شيئاً ما من الأنوثة، لا بل يساهم في كبتها، إنها وجهة نظرنا الخاصة، إنما هو يلوم عدم التوازن الذي تسببه الأنوثة بين الجنسين، بأنه ليس إلى حد أن ثمة حجة تنال منه.

وهناك بالمقابل، انتقاد آخر يمكن توجيهه له، والذي، هذه المرة، مسّه لدرجة الزعزعة. كقولنا إن صياغة النظرية كان متأخراً ولاحقاً في عام 1920. إلا أن ما يشكل الفكرة القوية، هو الذكورية الأصلية للفتاة الصغيرة، وهي موجودة سابقاً، من خلال وقائع سابقة. على سبيل المثال، في «التجارب الثلاث» الذي جاء فيه: «فرضية عضو تناسلي ذكري واحد لدى جميع الكائنات الإنسانية، هي أولى النظريات الجديرة بالذكر، والمثقلة بالنتائج»[1] *تحتوي الجملة على تدقيق كان لنا ميل جارف إلى نسيانه، ثم احتجبها فرويد لاحقاً، أي الإشارة للمؤلف الحقيقي لنظرية، طفل المرحلة القضيبية سواء كان فتىً أم فتاة. وبالنسبة للشيئ الجوهري، تعد نظرية فرويد في الجنسية*

---

(1) Trois essais sur la théorie sexuelle, op. cit. (ajout de 1915) , P. 125.

الطفولية، نظرية الطفل الذي يركز بعبادته لعضو وحيد ويحمل عقدة الإخصاء. فالنظرية الفرويدية هي نظرية جنسية وأدنى من أن تكون نظرية عن النزوع الجنسي الأنثوي. وبنفس المنحى، مسألة حقيقتها تنتقل وتتحدد، فهي صحيحة بالنسبة للطفل القضيبي. وبالنسبة لنا (سواء كنا رجالاً أو نساء)، ضمن الإطار الذي يكون هذا الطفل فينا ولا يحيد عنا. وبالنسبة لتأسيسها، كما فعل فرويد، على حقيقة الأنوثة، فهي حكاية أخرى.

وتشترك النظرية الجنسية الطفولية مع ظاهرة كيفية تشكيل التسوية، فمن ناحية، هي قريبة من الهوى التخيلي، وتساهم في إتمام الرغبة عند سماحها لممثلي الدافع بالظهور، ومن ناحية أخرى، هي ابنة الاعداد الثانوي (كأي نظرية)، وتحمل مؤشر كبتها. مِن كبت أي تصورات للأنوثة تتولد نظرية جنسية طفولية تُنسِب للكائن الإنساني، مهما كان جنسه، العضو التناسلي نفسه؟ لنتناول لاحقاً هذا السؤال الذي لم يطرحه فرويد.

هل يعني أن تكرار فرويد لنظرية الطفل واقتباسه من أهواء التركيز على جزء واحد من الجسد، أدى لأن تُلقى نظريته حول النزوع الجنسي الأنثوي في طي النسيان؟ إن الانتقاد شيئ والرفض شيئ آخر. إذ يكمن الاستحقاق الرئيسي للمحاججة الفرويدية في إبراز الدور الأكبر لعقدة الإخصاء عند الفتاة، وفي قدرته على إعادة تناول التاريخ الشهواني، الشائع سابقاً، وإعادة توزيع أوراقه من جديد بعد ذلك. فيما تكون فترة التوجيه، غنية بالنتاجات اللاشعورية، وهي تتعلق بالأهواء التخيلية، وأهواء الإخصاء عند المرأة، وبالطريقة التي يُدعى بها الطفل لتحقيق البرنامج القضيبي للأم، أو أيضاً بالرجل المقبول بصفته مزوداً بالقضيب، وتزخر عيادة الأمس واليوم بصور عديدة حول ذلك. أينبغي أن نستخلص من ذلك أن الفتاة الصغيرة هي رجل صغير؟ المسألة كلها هنا، إن كان ذلك لا يعني من حيث التحليل النفسي إنكار وجود مرحلة قضيبية عند الفتاة، فالاستفهام حول المكان المتوافق معها هو بالمقابل مفتوحاً.

لننهِ هذه الجولة النقدية الأولى بالعودة إلى الضعف الذي أُشير إليه من وجهة النظر الداخلية الذاتية في أقوال فرويد. حيث تطلب، بنفس الوقت، هذه المعارضة في أن تكون متلونة ومتباينة، وهناك شخصية يصورها النص الفرويدي، وهي تمثل المظاهر الأساسية للنزوع الجنسي الأنثوي، إنها الأم الحسية والجنسية، الأم الإغوائية. والمقطع الموجود في المقدمة والمأخوذ من كتاب «ثلاث تجارب»، يصور الأم التي تهز وتداعب وترضع طفلها كـ «بديل عن أداة جنسية كاملة مأخوذة على حدة»، ويعتبر هذا الشيئ مكملاً لـ «جوهر الأنوثة». وهكذا يلعب وجه منطقي من النزوع الجنسي الأنثوي دوره مع الطفل، وليس مع الرجل، بل وأحياناً على حساب الرجل، إذ ليس من النادر أن تحل برودة جنسية بعد الولادة، ولا نعني هنا ولادة الفتى فقط. فولادة الفتاة هي فرصة للمرأة لتحيا من جديد على صيغة، تعكس، على نحو ما، حبها المثلي الجنسي لأمها، وبصورة محتملة رفض الرجل. ويشير الإلحاح على هذا البعد الإغوائي للأم، إلى البعد الجسدي الشهواني للتبادلات الأولى. والسلاسة التي تعيش بها النساء، في الفراق عن الرجال، هي الناحية اللاشعورية لمثليتهن الجنسية، سواء في المشاركة بالمناجاة والبوح بالأسرار، أو بالحميمية الجسدية، وتأخذ نموذجها من مرحلة المراهقة المتعلقة بفترة الطمث، التي ربما تكون أساس التماهي مع الأم الحسية.

يعرض هذا الفصل أولاً ،الامتداد اللاكاني (نسبة لـ لاكان) لأطروحة فرويد، متبوعاً بنقد لاذع جداً لها، إنه النقد الأنثوي. وينتهي بإثارة الاستباقات المناقضة لهذه الأطروحة التحليلية النفسية حول الأنوثة ـ كما ستصيغها «ميلاني كلين» تحديداً ـ من خلال تساؤلات يطرحها «ك. أبراهام» على فرويد، وفي الوقت نفسه، يطرحها فرويد على نفسه.

أولاً ـ «لاكان»: العضو القضيبي وأبعاده

في تأكيده على «الوضع الأساسي للعضو القضيبي في النمو الشهواني»(1) يقوم «لاكان» بأكثر من استطالة للنظرية الفرويدية، حيث التزم بها كأثر، وبنفس الوقت، غيّر فيها النبرة. فالتاريخ وفقاً لفرويد، يسوق الطفل (فتىً أو فتاة) منذ المرحلة ما قبل الأوديبية إلى عقدة أوديب. وهي تتموضع تحت القاسم المشترك للعضو القضيبي، وهي، وفقاً لـ «لاكان»، تأخذ الطفل ذاته من الخيالي إلى الرمزي. أول الأمر في كون العضو القضيبي، هو ما ترغبه الأم، قبل أن تلاحظ أن ذلك لا يكفي لإشباعها، وأن هناك «شيئاً ما» كأول دليل على انفتاح على شخص ثالث. وانطلاقاً من هذا، فالصيغ المتنوعة للمطلب الموجِّه للأم، هو الذي ينبثق ثانية في لاشعور الطفل «إنه رغبة الآخر، وقد يكون العضو القضيبي الذي رغبته الأم». وهنا «سيحاول الفتى أن يطمئن نفسه عند قوله بأن ما ينقص المرأة، يمتلكه هو»، ويحدد «ب. أولانييه» قائلاً: «ولا حول للفتاة إلا أن تقر بأن رغبة الأم، إن أرادت الاستمرار في أن تكون لها السند والدعم، توجب عليها التخلي عن أن تكون من أجل أن تظهر، ومن أجل أن تظهر هو تحديداً ألا تكون وألا تملك»(2) وخلف هذه الأنوثة الموصوفة كمظهر كاذب، ليس من العسير إيجاد «تطور نحو جمال» النمط

---

(1) Propos directifs pour un congrès sur la sexualité féminine (1954) , in Ecrits, Le Seuil, P. 730.

(2) La féminité, in Le désir et la perversion. Le Seuil, 1966, P. 730.

الأنثوي «الصافي والصادق» حسبما يقول فرويد، حيث يُقدَّر الجسد برمته كمساوٍ قضيبي.

وفي منظور كهذا، تتخذ البنية خطوتها على مسار التاريخ. فمرحلة المواجهة المسماة،بصورة غير صحيحة، «ما قبل الأوديبية»، بين الفتاة (أو الفتى) والأم، ليست كما كان يعتقدها فرويد كحقل مغلق من المعانقات والمجابهات، إنما عقدة اتصالات متماهية دوماً مسبقاً مع أطوار التعبير بالرموز. ويكفي تناوب حضور الأم وغيابها ليخلق عند الطفل «مرجعٌ كشخص ثالث يلبي رغبته فيه»[1] ومن وجهة النظر هذه، من المجحف جداً دعم فكرة،«ميلاني كلين» حول وجود عقدة أوديب، إذاً لا عمر لتلك العقدة، إلا من عمر الإنسانية. فالطفل يُتخذ على الفور ـ وما أن يكون مرغوباً به حتى قبل تصوره ـ كبنية ثالثة، ومردودٌ إلى ما وراء الأم (عندما قد لا يكون له صلة إلا بها)، ويقع الـ ما وراء هذا في «العضو القضيبي بصفته يعني رغبتها وكلمة الأب بصفته مشكِّل لعالم رمزي»[2]. وتتوافق الفترة القادمة لعقدة الإخصاء وشهوة القضيب بزمن أقل من مرحلة نمو الفتاة الصغيرة حيث يتلاءم فيه،بالنسبة إليها، التاريخ والبنية.

مزعجٌ كل هوىً تخيلي وهمي، وكل عضو (قضيب أو بظر) بما يرمز له، كما يُعدّ العضو القضيبي بالنسبة لـ «لاكان» رمزاً للنقص، وذلك الهامش الذي يفصل أي كائن إنساني عن رغبته، هو العامل

---

(1) W. Granoff et F. Perrier, Le désir et le féminité , op. cit., P. 49.

(2) Ibid.

الذي يسمح بإعطاء معنى للنظام الإنساني الصرف. ويحافظ فرويد، كما ينوّه «آ. غرين» عن ذلك، على طور تناسلي، بالغ فقط، وبالنتيجة تسجيل نفسي للفارق بين القضيب والمهبل[1]. وبمجمل المنطق القضيبي إلى أقصى حد، يتمسك «لاكان» بالتعارض بين امتلاكه أو عدمه، بين القضيبي والمخصي. وبالنسبة إليه، يبتعد، بل ويحتقر من أي اعتبار للتناسلية الأنثوية: «نسميها كما نشاء، تلك المتعة المهبلية، ونتكلم عن قطب لاحق لخطم الرحم، وحماقات أخرى، هي ذي الحال»[2].

وما يعيد تناولٌ ما على بساط البحث، هو تعلق الموضوع نفسه بتعبير «النزوع الجنسي الأنثوي» في كتاب «المقاصد المباشرة» لعام 1954، حيث يجعل «لاكان» الصعوبة في المقدمة: «هل ينبغي أن نستنج أن التأمل القضيبي يجذب كل ما يتظاهر كدافعية لدى المرأة؟» ويجيب بالنفي، منفتحاً على نزوع جنسي أنثوي خاص، متجنباً السقوط خلف الستار القضيبي. وعن هذه الدافعية الأخرى ماذا يمكن أن يقول المحلل النفسي؟ لا شيئ، لا هو ولا أي إنسان آخر. وفي هذا يقول «لاكان» «أمر أن كل ما هو قابل للتحليل هو جنسي لا يشمل أن كل ما هو جنسي يمكن التوصل إليه من خلال التحليل»[3] وهكذا إذاً تتوضح فرضية «الجنسية» الأنثوية بأنها عصيَّة على التحليل، لأنه خارج نطاق الكلام، يتسرب ما هو إنساني بالتحديد.

---

(1) Le complexe de castration,op. cit., P. 103.

(2) Encore. Le séminaire, Livre XX, Le Seuil,1975, P. 69 - 70.

(3) Propos directifs. op. cit., P. 730.

فالمقولة المثيرة: «لا وجود للمرأة» تندرج ضمن هذا الاتجاه، ومن ذلك المرأة (أو بالأحرى أي امرأة) تخالف التأمل القضيبي، تبقي نفسها أيضاً خارج المنطق الأول، وبالتالي الشمولية. ويقول «لاكان»، ليس مصادفة إذاً منذ أن «نجثو ونتوسل النساء» (ومن ضمنهم المحللات النفسيات) لأن يقلن لنا ماذا تعني لهن المتعة «لم نستطع سحب أي اقوال منهن»[1] ولا يعني هذا الصمت الرافض والكبت، إنما هو خارج التعبير وخارج النفس. ومع ذلك هل نتمكن من تحديد هذا «الحس الجنسي» الأنثوي الذي يقع خارج مآخذ التأمل القضيبي؟الإجابة التي يصممها «لاكان» عام 1954 جديرة بالإيضاح: «كل مسار الغريزة الأمومية»[2] و «الجنسية» غير القابلة للتحليل ليست جنسية - بالمعنى التحليلي للكلمة - إنما غير غريزية، والانزلاق من سجل لآخر يثقل المعنى بالطبع. وقد استمر «غرانوف و بيربيه» بالفرضية اللاكانية، وقدما افتراضاً «حكمياً لا يمكن التحقق منه» إنما متلاحم تماماً مع المنطق النظري التحتي: «بأن الفتاة الطبيعية، تتملص فرضياً من أي بنائية أوديبية، وقد لا تمنع نفسها من الاستمتاع في أوقات معينة، وقد تصنع أيضاً طفلاً وتصبح مرضعة له»[3] إنما ما أن تقع هذه الفتاة «في أشراك الحس» حتى تخضعها الغريزة الجنسية للنظام الشبقي (ليبيدو)، الذي يخضعها لقانون العضو القضيبي كالفتى.

---

(1) Encore ,op.cit., P. 69.

(2) Propos directifs, op. cit., P. 730.

(3) Le désir et le féminin,op.cit., P. 60.

والمهبل، في أي جانب يقع،أ في جانب الطبيعة أم في جانب الحس؟ نشك بالإجابة، حتى ولو كان هناك تدوين «لاكان» المعزول: «يصعب علينا ألا نعزي للكبت الثبات المعهود، فوق المحتمل، من أن نسميه تنصل»(1). وكان لهذه الملاحظة صداها على الدافعية غير المجتذَبة من العضو القضيبي، لكنها لن تعرف مصيراً أفضل غيره. وبما أن «لاكان» ينزلق من الدافعية إلى الغريزية، فالمهبل لدى أتباعه، هو أقل تمثيلاً للكبت بحيث لا يبدو كقطعة واقعية حقيقية، أو مكان طبيعي، لا يشير له المعنى، ولا أكثر «أنسنة»، من الفتاة الصفراوية. وبلا شك،ألا توجد معارضة مقبولة بحيث يمكن أن يصيبه التهيج قبل مرحلة المراهقة تماماً، (إنه جانبها «السفاد»)، إنما لا يكفي ذلك لضمان توظيفه الشهواني، وبالنتيجة،كبته. وليس مستقبلاً، يتهكم «لاكان»، سيروِّج مؤتمر حول النزوع الجنسي الأنثوي للمحللين النفسيين لخطر «تيريزياس».

ولكي ندرك البرودة الجنسية، يُضَّطر فرويد تحويل ذلك إلى البنية. فيما «لاكان» الذي دافع لفترة عن تجاهل وكبت المهبل، يتكلم أيضاً عن البرودة الجنسية كعَرضٍ نوعي للنزوع الجنسي الأنثوي، ضمن الإطار ذاته حيث «يفترض أن كل بنية لاشعورية تحدد ذاتية العصاب». لكن القول يبقى بلا تتمة، فالعضو القضيبي الخالد والحاضر في كل مكان، لا يدع احتمالاً آخر مطلقاً إلا إنكار البرودة الجنسية. فالنساء، كما يقول «لاكان» يستمتعن لكن لا يدركن ذلك،

(1) Propos directifs,op.cit., P.730.

وهذا الاستمتاع يفلت من الحس، فمقولة البرودة الجنسية ليست إلا «ادعاء»[1].

بعيدة، بشكل لافت، عن «الغريزة الأمومية» في عام 1954، تتطرق ندوة البحث العلمي «Encore» عام 1973 إلى استمتاع أنثوي إضافي، صامت، على خلفية العضو القضيبي أكثر من غيره، والذي قد تعطي نشوته الروحانية الصوفية خير تمثيل. وبعد السفاد، هناك المغالاة بالنشوة، وليس في وسعنا إلا أن نُدهش من تكرار «لاكان» لكبرى أساطير الغرب (ومناطق أخرى) المتعلقة بالمرأة، المتوحّدة بالطبيعة من جانب، وبالإفراط الجنسي من جانب آخر.

ثانياً ـ النقد الأنثوي

تكفي قراءة الصفحات الأخيرة من «الندوة الجديدة» حول الأنوثة، لنتكهن مدى حدة النقد الأنثوي، بخلاف فرويد، بل علم التحليل النفسي بمجمله. فمنذ نهاية عام 1920 و«الدونية الجنسية الأولية» للمرأة تفسِّر تماماً «غرورها الجسدي» كـ «تعويض» بأن حياءها «أكثر ألفة» مما نعتقد، و«تقليلها من شأن العدالة» يعود إلى الهيمنة المسبقة للشهوة على حياتها النفسية. وإن تكن «قدرتها على التسامي الدافعي» و «مصالحها الاجتماعية» أقل مما هي لدى الرجل، فهي تدين بذلك إلى أن الأنا الأعلى عندها مؤسس بصورة ضعيفة، ولسوف ينقصها محرك قلق الإخصاء من أجل استبطان

(1) Encore,op.,cit., P. 69 - 70.

العيوب والمحرمات... وبالتالي من أجل استبطان قصير جداً. ومن هنا تنجم كذلك مساهمتها الضيقة «باكتشافات وابتكارات التاريخ الثقافي».وهناك بالطبع النسج والحبك، اللذان يدينان إليها، لكنه اختراع ليس ذا شأن، وهنا يكفيها أن تقلد تشابك شعر ما يُجزّ من صوف الشاة حول العانة. الشعر الغائي،إلى حد ما، محتجبة خلف العيب التناسلي، بنظر المرأة كما بنظر الرجل. أضف أيضاً، لكي تشكل إطاراً حسناً، أنه فيما لو بدا رجل في الثلاثينات شبابياً، متجاوباً مع استخدام «إمكانيات النمو بقوة التي يفتحها له التحليل»، فالمرأة من نفس العمر، «تخيفنا،بصورة مألوفة، بصلابتها الجنسية النفسية وثباتها وعدم قابليتها للتبدل». وكل ذلك، يسلّم فرويد، لا يجعل «الصوت محبباً»(1)!

وبسبب هجوم النقاد، سيبقى المؤسس من المرمر: «لن ندع أنفسنا مضللين بنزاع أنصار الأنثوية، الذين يريدون أن يفرضوا علينا تكافؤاً بأوضاع وتقييمات الجنسين»(2) فكثير من النساء في واقع الحال، لا يتوافقن مع المشهد القاتم المهزوم، ويجيب فرويد: انظروا إلى التبادل الجنسي النفسي، وإلى الناحية المرجحة لدى هؤلاء النسوة للتصورات الذكورية. وبصورة عامة، إنه لن ينخرط مطلقاً في النقاش، بذريعة أن ذلك لا يقبل الجدل مطلقاً، حيث لا يجيد علم التحليل النفسي استخدام سلاح الجدل، بقدر ما أداته

---

(1) La féminité,op. cit., P. 177-181.

(2) Quelques conséquences psychiques de la différence anatomique entre les sexes ,OCF P,XVII, op.cit., P. 201.

اللاشعور غير مستعدة على تحييد النقاش. ويقول: «إن تُنسِبون لي تاثير نقص القضيب على بنيوية الأنوثة كفكرة ثابتة، أجد نفسي طبعاً بلا دفاع»[1]. وسيحاول آخرون تهدئة الخواطر، بالقيام بملاحظة أن شهوة القضيب ليست وقفاً على الفتى، حيث من الصحيح أنه في ظل الخصم الأوديبي الكبير، ليس هناك من قضيب إلا «غير مكتمل النمو». أو أيضاً، أنه بالنسبة لأي امرىء، يرفض أن يكون منبوذاً من غير جنسه. وبنهاية الأمر، لماذا جنس واحد وليس الإثنان؟ وكما هناك فتيات يبوّلن واقفات، هناك فتيان يصوّرون على أجسادهم شكل الشق المهبلي، بإحداث ثنيات في جلدهم. فشهوة الأنوثة، وشهوة الاختراق، والإنجاب، صادفها فرويد مع «سكريبرو» رجل الذئاب، في الذهان مع الأول، وفي حدود العصاب مع الثاني. ومن ناحية أخرى، فهو رفض الأنوثة الذي سيبدو له متميزاً في تسجيل عصابي، بصورة عامة، فعند الرجال كما عند النساء شهوة القضيب محتومة.

وهناك أيضاً أولئك الذين سيحملون الحديد على جسد الخصم، ويقول «وينيكوت» الوادع ما يلي: «مصدر مناصرة المرأة هو في التوهم المعمم، لدى النساء كما لدى الرجال، بأن هناك قضيب أنثوي، وفي التثبت الخاص لبعض النساء والرجال على المرحلة القضيبية، أي المرحلة التي تسبق التناسلية بما للكلمة من معنى»[2] نتصور، بشكل خاص، التأثير الشمولي الذي يمكن أن تحدثه ذريعة ما ترتد على صاحبها.

---

(1) La féminité, op.cit., P.178.

(2) Conservations ordinaires, Gallimard,1988, P. 211.

ورغم اللوم الذي نالته «هيمنية» الرجل على المرأة التي أسسها فرويد، ليس من المؤكد أننا سوف نحرز تقدماً أكثر في التحليل النفسي. واتهامه بأنه لم يُضِف شيئاً على مقولة «أرسطو»: «الأنثى ذكر مبتور» هو سلاح ذو حدين، وإذا كان ذلك مرتبطاً بـ «ابتكار» فرويدي، فمن جانب آخر يشير ذلك إلى زمانية تصور ما، أو زمانية هي تحديداً سمة جوهرية للاشعور. ومن الممكن، هنا وهناك، أن يتمسك فرويد بحكم قياسي مسبق، على سبيل المثال، في موضوع الأنا الأعلى، حين يقول: «الرجل الذي يفكر هو مشرّعه الخاص، وهو المعرِّف به وقاضيه. فيما المرأة لا تملك في ذاتها قاعدة للجمال، فهي لا تستطيع التصرف بصورة حسنة إلا ببقائها في حدود مبادىء ومعايير أخلاقية، ومراقبتها لما يعترف به المجتمع بأنه ملائم ومناسب» ونعثر بين معاني تلك العبارات على ذريعة حول ضعف الأنا الأعلى للمرأة، وحول تهميشها للعدالة وحول تفاهتها الأخلاقية. في أن فرويد (سيغموند على الأجدر) كان في التاسعة عشرة من عمره عندما كتب هذه الأسطر[1]! فالتحليل لم يغير في ذلك شيئاً، سوى تحويل حكم قياسي مسبق إلى نظرية. وانطلاقاً من هذا التحقق، هناك اثنان من ردود الأفعال الممكنة: يكمن الأول في إقصاء النظرية الفرويدية بصفتها خاطئة لأنها إيديولوجية. فيما يذكر رد الفعل الثاني التحليلي النفسي بأن الحكم السابق واللاشعور ينطلقان مترابطين، وأن هناك إذاً، مادة من الواجب تحليلها وليس رفضها.

(1) Lettre du 27 février 1875 à E. Silberstein, in Lettres de jeunesse, Gallimard, 1989.

وبالانطلاق من المترابط مع شعور الرجال، ستتم معارضة ذلك بالتأكيد!... ومع ذلك لا يعيش الرجال والنساء على كوكبين مختلفين إنما في علاقة تتصف بالتفاعل الذاتي، اللاشعوري هو أيضاً، أساسي بالنسبة لما يشكله.

كما يمكننا أن نضبط فرويد متمسكاً بالهوى التخيلي الوهمي، أكثر من تمسكه بنظرية: «كل فريق يتمسك بالحط بالمرأة فهو غريب عني»، هكذا كتب بعد الإيحاء بأن المرأة الصعبة المنال حيوان كبير كفريسة. كما تملّكه الأسى حين أضاف ثانية إلى ذلك من ناحية أخرى: «كل فريق يتمسك بالتعميم فهو غريب عني»[1] أي أن علامات إنكار الحق قابلة للإدراك. وهنا أيضاً، يمكننا إما أن ننتهز الفرصة من أجل الإساءة لمكانة المحاججة والأدلة، وإما أن نهتم بهذا الارتباط، الذي لم يلحظه فرويد، بين المرأة صعبة المنال والرغبة في الانتقاص منها. ودافع الانتقاص، مع لهجته الشرجية، هو في لاشعور الرجل، مألوف كذلك في ميله لأجزاء جسدية صغرى بمفردها. الأول كالآخر، ليكون نمطياً للاشعور الذكري، لايخص في ذلك بصورة أقل النزوع الجنسي الأنثوي، فطريق التفاعلية الذاتية، في الحب الجنسي للجنس الآخر، بدأ عندما حمله الأب لابنته.

مهما كانت وجهة نظر التحليل النفسي بمساندته للنزوع الجنسي الأنثوي، سنكون في معظم الأحيان على اتفاق من أجل التحقق بأن

---

(1) Pour introduire le narcissisme ,in La vie sexuelle, op.cit., P. 95.

انتقاد مناصر الأنوثة يخلط الأوراق، وبنهاية الأمر إنه التحديد باللاشعور بصفته لا يحتمل بالنسبة لها.فالمساواة في الحقوق والواجبات بين الرجل والمرأة الذي كان يطالب به «أوليمب» من «غوج وكوندورسيه» خلال الثورة الفرنسية هي اليوم فكرة مشتركة لكثير من مواطني المجتمعات الديمقراطية، ومقاومة الأفعال هو شأن آخر، يهم أيضاً المحلل النفسي، وهو بالتأكيد أولية العضو القضيبي. وليس مطلقاً،في هذه المجتمعات، أن خطاب اليمين المتطرف، يقتبس أكثر من غيره من المثلية الجنسية الذكرية اللاشعورية، ويساند علانية التنافر القديم. وإن وجدنا عِبراً من التاريخ حول هذه النقطة، فهي أن المساواة بين الرجال والنساء حيث تتحقق (نسبياً) هنا، هي دوماً نتيجة لتهيئة مزعزعة، صعبة وطويلة الأمد.والجميع يؤكد أن هذه المساواة مقهورة تجاه «منطق» اللاشعور، وليس بإلحاقها به.فالمساواة ليست هبة نفسية أولية بدائية، لكنها تشكيل رد فعلي تأثري، ما دام أي امرىء لا يستطيع أن يكون صاحب امتياز! ويُنتظر من تحليل اللاشعور، أي من غير المقبول من الناحية النفسية، أن يمد النساء بتصورات يتمكنَّ بها (بصورة لا شعورية) من إشباع أنفسهن، وهذا من أجل الحد الأدنى من الغلط بالتوجه.

ولعل النقد الناصر للمرأة أصبح هو أيضاً تحليلياً نفسياً، وتلك هي حالة «كارين هورني» التي ستأخذنا بعيداً في فرنسا مع «لوس إيريكاري» بعد أن تشير إلى ثبات المذهب الفرويدي في التركيز على القضيبية وقلة الحالات تجعل الفتاة، كشخص نفساني، وتكتب قائلة: «توصف الأنثى دوماً كتشويه وعيب وضمور، وعكس للجنس

الوحيد الذي يستأثر بالقيمة، ألا وهو الجنس الذكري. كيف لنا قبول أن كل الصيرورة الجنسية للمرأة محكومة بالقص، وبالنتيجة بالشهوة والغيرة والمطالبة بالجنس الذكري؟»[1] تشوش السجلات، المشار إليه آنياً، ما بين نقد سياسي (لهيمنة جنس على آخر) ونقد تحليلي، مُدرَك هنا بيسر. وإن وُجدت نظرية تحليلية نفسية أخرى للأنوثة غير نظرية فرويد، فهي لن تتمكن من أن تستمر إلا بتحليل اللاشعور، مُعيدة الشيئ الجوهري إلى المصدر العيادي السريري. والصفة «غير المقبولة» للأطروحة الفرويدية غير كافية لإقصائها، وربما نحاول القول على العكس، ما دام الـ «غير مقبولة» هي علامة أكيدة للارتداد والكبت. ويصبح التشوش أكبر أيضاً، عندما ننزلق من النقد إلى المقترحات، إلى أن نتبين ونستشف هذا المشروع غير الملائم تماماً: «منح المرأة لاشعوراً آخر» ممّ قد يتشكل هذا؟ لا نعتقد أننا نخون معتقدات «ل. إيريكاري» بقوله إن العلاقة بين البنت والأم، وبين النساء قد تشكل النواة في ذلك. فالمراحل «الفَرجية، المهبلية، الرحمية» قد تتوازى فيها المرحلة القضيبية. ولدى قراءة القائمة المطروحة للملذات «الأكثر أنثوية بصورة محددة» هناك: «مداعبة النهدين، والمس الفَرجي، ونصف فتح الشفاه، والذهاب والإياب بالضغط على الجدار الخلفي للمهبل، والملامسة الخفيفة لعنق الرحم، إلخ» سنذكر أن ما يصفها هو أن المرأة في مداعبتها الذاتية، أو النساء في مثليتهن الجنسية، يكفيهن التدبر بذلك. فيما الرجل

(1) Ce sexe qui n'en est pas un, Ed.de Minuit, 1977, P.68. Cf. également: Speculum, de l'autre femme, Ed, de Minuit, 1974.

وقضيبه، الذي يحطم أكثر مما يفتح، فلا يصيبه من ذلك شيئاً. وما يرتسم هكذا، هو أقرب من عكس الأطروحة التحليلية النفسية حول الأنوثة، إنه الطيف النرجسي بصورة خاصة، المنغلق على نفسه، لامرأة تحقق المثالية في العشقية الذاتية بشفتين تقبلان بعضهما بعضاً، يكتب «ل. إيريكاري» قائلاً: «تتلمس المرأة نفسها طوال الوقت، دون أن تستطيع، من ناحية أخرى، أن تمنع ذلك عن نفسها، لأن عضوها الجنسي جُعِلَ من شفتين تقبلان بعضهما باستمرار»[1] فالبعد الدفاعي، وليس الأولي، لهذا الحاجز(سنعود إليه في الحديث عن النرجسية)، هو بالمناسبة قابل للإصلاح بصورة جلية: «القضية التي لم يُبَت فيها لهذه العشقية الذاتية تحصل في التحطيم العنيف أي بالإبعاد القاسي لهاتين الشفتين بقضيب مغتصِب». وعند الحدود، هناك مأخذ وحيد باعتبار أن الرجل قد يكرس المرأة لأن تخضع وتستسلم، في «مهانة ماسوشية»، ومزاجية جنسية لا تروق لها. ولعل التصورات الفوهيّة كـ (الفم، والشرج، والمهبل) موضوعة في مقدمة النظرية الكلينية وتنوعاتها، وهي ليست مطلقاً أكثر «قبولاً» ما دام الصحيح أنها ليست مسكناً للقضيب.

قد يكمن الالتزام السياسي (المناصر للمرأة أو غيره) في تمني «شيئاً آخر» للغير. لا تدعم المحللة النفسية إلا لتعوِّل على رغبة ما. فمناصرة المرأة تتغلب عليها وتوجب على «كارين هورني» أن ترتد نحو اللاشعور، إنها حقاً غير قابلة للتحوّل، بمناشدتها سببية أكثر

(1) Ce sexe qui n'en est pas un; op. cit., P. 24.

سلاسة، من حيث الثقافة والتاريخ كما لو أن هذا الأخير لم يكن يمتلك جذوراً لاشعورية. وعندما نددت بـ «إيديولوجية حكم الأب» لفرويد، و «الظروف التاريخية» لنظريته حول الأنوثة، يتابع «ل. إيريكاري» الميل نفسه، الذي رفض اللاشعور وحتميته.

وإن كان هناك نقد محتمل للنظرية الفرويدية (واللاكانية) للأنوثة،فيمر بالضرورة عبر تساؤل حول الموقف من أولية العضو القضيبي. وهل ينبغي نفي وجوده؟ بالتأكيد لا.فعلى الصعيد الجماعي، تهيمن أولية العضو القضيبي في تنظيم التشكيلات الاجتماعية والبنية الأكثر دقة وهي علاقتنا بالسلطة. وليس من قبيل المصادفة، كما تذكّر بذلك «فرانسواز إيريتييه»، إن لم يكن هناك مجتمع معروف، ماضياً أو حاضراً، لم تكن السلطة فيه حكراً على الرجال. فسواء هنا أم هناك، أن تشغل امرأة من بين رجلين منصباً عالياً، لا يكفي لإنشاء سلطة أمومية. وعلى الصعيد الفردي، رضخت أولية العضو القضيبي تماماً لحياة رجال ونساء. فالقضية إذاً هي في ناحية أخرى موضوعية: إلى أي قضية نفسية ترجع مجموعة تصورات تأسيسية لأولية ما؟ والكلمة الدالة على ذلك هي «أولية» وتعني علاقة تنظيم كشبكة علاقات تتصرف بها الرغبة والقانون، الكل على أساس علاقة منطقية، أولية العضو القضيبي هي تنظيم حساس في تشكيل الطفل نظرياً. وإجمال التصورات التي تؤسسه تصبح بلا شك لاشعورية، ليس على مرمى نظرنا أبداً الآلهة «اوزيريس و هيرميس». إنما أخيراً قد لا يكون من العسير أبداً أن نجد وريثيهما المعاصرين. وإذا كانت أولية العضو القضيبي هي «بنية لاشعورية» فلأنها تنتمي

أكثر للمعنى «الليفي ستراوسي»[1] لهذه العبارة منها للمعنى التحليلي النفسي. وعلى هذا المقياس، تنتمي أولية العضو القضيبي، باعتبارها وظيفة توزيعية التصورات، لـ «الناحية المنظمة لذلك» أي الأنا.

سؤال آخر يطرح نفسه، لماذا التنظيم القضيبي يؤكد هذه الأولية. في حال الفتى، يشير كثير من كتاب اليوم للقيمة الرمزية لوصف القلق أمام الخطر الدافعي لقلق الإخصاء. وفي تحليله للرجل الذئب، كان فرويد قد لاحظ بنفسه هذا المظهر. وليكون واخزاً، يحدد قلق الإخصاء ويحصره مع الخطر المداهم. ومن الممكن أن عقدة الإخصاء لدى الفتاة تلعب دوراً مشابهاً، وهي أيضاً لتهدئة (نسبياً) القلق أمام الغايات الأنثوية للشهوة (الليبيدو). إنما هنا استباق على المتضادات التحليلية النفسية للنظرية الفرويدية.

ثالثاً ـ شكوك «كارل أبراهام» وأسئلة فرويد لفرويد

في تبادل للرسائل مع فرويد في نهاية عام 1924[2] *صاغ «أبراهام» عدداً من التساؤلات تتعلق بالأنوثة قد تكون مقياساً للنقاش يتجاوز التحليل النفسي.*

ولإدراك أعراض مهبلية ما للبرودة الجنسية، لا تتصرف النظرية الفرويدية إلا بعلم التكوين المصغّر: كالتماس التوظيف البظري الذي يرفض التنازل عن المكان. وبالبيان السريري، هذا غير كافٍ لإدراك البرودة الجنسية

---

(1) ليفي ستراوس: مختص بعلم الإنسان، فرنسي الجنسية، ولد عام 1908 وطبق مفهوم البناء على الظواهر الإنسانية (المترجم).

(2) Cf. Freud - Abraham, Correspondance 1907 - 1926, Gallimard,1969, P. 380 sq.

لحالة عامة. أن «يبقى» المهبل «بارداً» أو أن ينغلق بصورة مؤلمة على الاختراق، إنها مظاهر دفاعية، كما يكتب «أبراهام»، تطالب بالرغبات الأولية المكبوتة والمعتَرض عليها. ومن الواجب، استحواذ تحريم مؤسَّس على المكانية المهبلية. والفرضية تتم نفسها بنفسها: إنها التهيجية المهبلية الطفولية بالارتباط المباشر مع الاستثمار الشهوي للأب.

لعل الترحيل والنقل لمرحلة البلوغ لتغيير المنطقة التهيجية، تشكل إحدى الحلقات الضعيفة للمحاججة الفرويدية. إنها ترتكز بالفعل على تضامن مهمة مزدوجة: تغيير الأداة والمنطقة. وإذا كان النقل الأول يتعلق بالطفولة والثاني بالمراهقة، فلأن لفظهما يصبح غير قابل للفهم.

إحدى الانتقادات الأكثر قسوة حول مسألة النزوع الجنسي الأنثوي ليست إلا فرويد نفسه، لأن فرويد يعتمد على السريرية أكثر من ابتكاره لنظرية.وسنرضي أنفسنا هنا بأن نرجع باختصار إلى تحليل «دورا» من ناحية، ومن ناحية أخرى لتحليل التخيل الوهمي «طفل مضروب»(1)

أن يتعلق الأمر برمزية الأعضاء التناسلية، وبأهواء الاغتصاب والاختراق، وبحالات القلق المتصاحبة مع تصورات جسد داخلي، لا شيئ ينقص في الأدوات والمستلزمات السريرية التي جلبتها «دورا» كشاهد على أنوثة طفولية مكبوتة. ويكتب فرويد أنه ينبغي مواجهتها في بيتها «بالظهور المسبق لأحاسيس حقيقية تناسلية». إننا بعيدون عن أطروحة التنكر الطفولي للمهبل، وكذلك عن تهيج قد يبقى محصوراً في البظر. كتاب «طفل مضروب» هو بالتأكيد المساهمة الأكثر أهمية لفرويد في إدراك الأنوثة الزاخرة بالمقولات القضيبية. ولعل حدة الكبت التي تكون أداتها نواة الهوى

---

(1) Fragment d'une analyse d'hystérie (1905), in Cinq psychanalyses. PUF. 1967; et Un enfant est battu, in Névrose, psychose, Perversion, PUF, 1973.

والتخيل، تجبر التحليل على اقتراح بناء ما. وما وراء العرض اللاشخصي «طفل مضروب»، يتوارى تصور مسبوغ بقوة بالمتعة، لقد ضُربت من قبل الأب. ويستبدل فعل «ضرب» بـ «العلاقة التناسلية المحرّمة». وخلف «ضُربت من قبل أبي» هناك «عاشرته». وينسج الهوى والتخيل معاً خيوط الماسوشية (الضرب)، والنكوص الشرجي(ضُربت على «المؤخرة وهي عارية تماماً») وتيقظ التناسلية البدائية (استشعار الهدف المحدد وتهيج الأعضاء التناسلية). ومن اللافت أن هذا التحليل يقود فرويد لدعم أطروحات معاكسة للتي ستكون له في نظرية التركيز على قضيبية الأنوثة، وتخص وعي الشعور بالذنب وعقدة الرجولة[1].

---

(1) Pour une analyse plus approfondie de cette théorie freudienne de la féminité autre que phallique,cf.J.André,Aux origines féminines de la sexualité, op. cit.

الفصل الرابع

النظرية الأخرى

«كارين هورني» و «ميلاني كلين»

النظرية الأخرى هي أنّ: المفرَد مبسِّط. حيث إن الطروحات التي تقف على نقيض النظرية الفرويدية منذ شيوعها، كثيرة ومتنوعة، ولم تتعرض لغزارة المنشورات اللاحقة. ويبقى أن نعيد الجدال إلى عباراته الأساسية. إذ ليس من المستبعد أن يتلخص هذا التشتت بالمبادرة التالية: أليست الأنوثة منظومة نفسية جنسية أولية، أم أنها كانت مخرجاً مشتقاً ثانوياً من ذكورية أولى؟ يختار فرويد الحل الثاني، فيما يختار «ك.أبراهام» و «م. كلين» وآخرون الحل الأول. هذان الخياران يتواجدان عندما يتعلق الأمر بجدل حول التهيجية الجنسية للمهبل، هل الفتاة الصغيرة على دراية بذلك، أم ينبغي انتظار الفتاة الشابة ومرحلة البلوغ؟

يقدم هذا الفصل نقيض المفهوم الفرويدي، من خلال رواده وممثليه الرئيسيين: «كارين هورني» (الجديرة تاريخياً أن تكون الرائدة «الأولى» في قولها لا لفرويد ولنظريته المركزية القضيبية) و «ميلاني كلين»، دون أن نغفل عن «إرنست جونز» و «جوان ريفيير»، اللذين

يجدر ذكرهما بهذه المناسبة. وإن نضع في الصدارة «م.كلين»، فلأنها أولاً تقدم نظرية لمجمل النزوع الجنسي الأنثوي، والبعيدة جداً بالعلاقة مع وجهات النظر الفرويدية، والتي ستستخدم كقطعة «كنڤا» للعديد من النظريات المختلفة اللاحقة. وسيكون هذا لاحقاً لأن أهمية هذه الكاتبة تتعدى، إلى حد كبير، مسألة الأنوثة، وتخص بشكل عام النظرية التحليلية النفسية. ومن المحتمل، من ناحية أخرى، كما حاول «غلوفر» تبيانه[1] أن تجديد النظرية الذي أدخلته «م.كلين»، لم يشتمل فقط على علم التكون النفسي للأنوثة، إنما اقتبست من هذه النظرية جزءاً من أصالتها.

أولاً ـ القضيب العملاق والمهبل المستنكر

أول اتصال لـ «كارين هورني» بمسألة الأنوثة تعود لعام 1922.لقد أنجزت تتمة مباشرة لمقالة «أبراهام» وسبقت أطروحات فرويد المخطوطة. إنما تطوراتها النوعية حول الموضوع[2] التي تتعلق برغبة القضيب، تكثف خبرات نفسية متعلقة بفترات مميزة من تاريخ الفتاة الصغيرة. إنها الحقبة التي يكون فيها الطفل شغوفاً بوظائف التبرّز والطرح، وتذكر «ك.هورني»،أن الرغبة مدار البحث، تصنع

(1) An examination of the Klein system of child psychology, The Psychoanalytic Study of the Child , New York, vol.I, 1945, International University Press.

(2) Les principaux articles de K. Horney sonts réunis dans un livre La psychologie de la femme. Payot, 1971.

ظهورها إذاً في فترة ما قبل التناسل. وعلى وزن العشقية الإحليلية، يبدو «تبوّل» الفتى مرغوباً لدى الفتاة. إضافة إلى ذلك، وضوح فوائد التعري والضمان الذي يقدمه العضو الجنسي المرئي («على الأقل نعرف كيف حصل»). وتشدد الملاحظات السابقة لـ «رواف» و«غالانسون»، على التلازم بين رغبة القضيب وتكوين النرجسية، أي تتشارك بالرأي. والقضيب الذي يتم التعري به عن غير قصد، علاوة عن الإشادة به من قبل الراشدين، هو بالنسبة للفتى مصدر للضمان بالنسبة لصورة جسده، وهو الشيئ الذي لا تتمتع الفتاة بالتصرف به. وحتى هنا، يعتبر الكلام تحويراً أكثر من أن يكون تناقضاً مع كلام فرويد. فالتناسلية تحل محل العجز بين الجنسين وتعمقه. الفعل الوحيد الذي يمكّن الفتى الصغير من مسك قضيبه بقصد «التبوّل»، برؤية ومعرفة جميع الناس، كما تلاحظ «ك. هورني» تحياه الفتاة الصغيرة كتوطئة للإستمناء المحرومة منه. من ناحية أخرى، لا شيئ يتيح لها، مقارنة مع الفتى، التحقق من الأضرار التي تتخيلها حاصلة جراء استمنائها بأعضائها التناسلية، وبالنتيجة تهدئة الشعور بالذنب والقلق المصحوب معه في الاستمناء.

لعل اكتشاف المهبل، تضعه «ك.هورني» على صلة مع الالتباس الأوديبي، وهذه المرة، الانفصال عن فرويد يصبح واضحاً: ف «الرغبات الزانية ترتبط بالمهبل بدقة مؤكدة من اللاشعور». وهنا حيث يمارس اللامرئي واللاشعور تأثيراتهما، الملاحظة غير مقبولة مطلقاً، وانطلاقاً من أداة سريرية وحيدة، يُستنتج تكوين العشقية المهبلية وكبتها.وخلف الأهواء والتخيلات الأنثوية نمطياً بتحطيم

كـ (لص أو شخص آخر)، وللاعتداء بصيغ مختلفة (الخيالي يحرض طوعياً على السكين)، أو للتخوفات الحيوانية كـ (الحية أو الفأر..إلخ) نجد الرهاب شبه الشامل من قضيب عملاق، مدمر لأحشاء الجسد. فالمغالاة والخطورة التي تُعزى لهذا القضيب هي موروثات لتصورات تتشكل عند الفتاة من الأب ومن نزوعها الجنسي، إنها تفسر عنف الكبت الذي أداته الأنوثة الطفولية، والقلق أمام ولوج هذا القضيب المتجاوز الحد، كما تذكر «ك.هورني» يُدرك من جديد من خلال قلق النساء عند الولادة الأولى، سائلة نفسها كيف سيتمكن طفل ضخم، فعلياً، من الخروج من فتحة صغيرة جداً. والبرودة الجنسية، كأي عرَضٍ، ذات وجه مزدوج: إنها نتيجة مرضية للكبت من جانب، ومن جانب آخر، تستهدف حماية الأنا من القلق المصاحب لأهواء وتخيلات وهمية محطّمة، فالبرودة الجنسية أجدر من التهيج، إذاً، إذا كان على هذا التهيج أن يُثار بتصورات غير مقبولة، فمرحلة الذكورية عند الفتاة والتصور الذي تشكله لعضوها الجنسي بالتزامه العفة، هذان النتاجان النفسيان، يشغلان وظيفة دفاعية، وأحدهما كالآخر يخفيان الجرح المهبلي الناشىء عن حب محرم. فالمهبل «الجاهل» هو فعلياً مهبل مرفوض. هذه الاعتبارات عن الأنوثة الأولية وكبتها تشكل المركز، وتم سيرها عدة مرات من قبل آخرين، منذ معارضة النظرية الفرويدية عن الأنوثة.

جسد مجروح، أحشاء مهددة أو مدمرة... تلك هي نصوص لـ «ك. هورني»، تتحدث حقاً عن القلق أمام الرغبة أكثر من الرغبة نفسها. رغبة الأب، وقضيبه، ووضعهما على علاقة بالمهبل المخترق، ليسا في ذلك أقل من مكونات معينة لهذه الأنوثة الأولى.

وتمثل مهبل مجروح ـ «الذي تؤكده» مرحلة البلوغ بدم الحيض ـ هو غير قابل للفصل عن القامة الخيالية لقضيب الأب، أكثر من عقدة الإخصاء. وتلاحظ «ك. هورني»، متابعة لفرويد، نشعر بكثير من الألم عند إدراك النزوع الجنسي التبادلي للمرأة، ونقاسي لرؤية ذلك، عدا عن الغيظ والاستياء، مما يمكن أن يدفعها تماماً باتجاه الرجل. إن وجود رغبة أنثوية طفولية، نشهد النساء بذلك أثناء التحليل، وبصورة خاصة، حين يقتربن من هوى تخيل المشهد الأصلي للجماع بين الأبوين، وإن الهياج الذي يظهرنه ضد الأم يشير إلى أنهن يشتركن في ذلك ويشاكسن بأحاسيسهن به. فيما رغبة القضيب على منحدرها الأوديبي البطيء النمو ليست ما يدعو الفتاة لأن تتجه نحو الأب. وهي، على العكس، عند نقطة إحباط الحب الزاني، حيث القضيب المرغوب هو بديل الأب وينبغي التخلي عنه وبنفس الوقت عن تعرّض للقلق يخص الجرح الداخلي، تفرض على نفسها إزاحة التوظيف من الداخل نحو الخارج.

ثانياً ـ «ميلاني كلين»: من النهد إلى القضيب

لعلها فكرة مخيفة، كي لا نقول إنها لا تُصدَّق، صورة الطفل الرضيع من 6 ـ 12 شهراً، تطرق أذهاننا وهو يحاول تدمير أمه بأسنانه، وأظافره وبرازه وكل جسده، محوّلاً كل ما يقع تحت يديه إلى سلاحٍ خطر[1]. مخيفة، لا تُصدَّق... هي كلمات تلخص بصورة

(1) M. Klein, Les premiers stades du conflit oedipien et la formation du surmoi, La psychanalyse des enfants (1932), PUF,1959, P. 144.

قوية جداً، التلقي الذي غالباً ما يحصل عند قراءة كتاب «ميلاني كلين».

إن شعور ذلك الذي يخاطر بنفسه اليوم للمرة الأولى في الجحيم الذي تصفه لنا، هو تقريباً في نفس السياق. ويُضاف إلى المفاجأة أمام المحتوى، صعوبة الأسلوب، إذ إن النص الكليني يعطي انطباعاً بأنه كُتِبَ على وتيرة واحدة وبالمثابرة ذاتها.

إن براهين «م.كلين» لا يمكن تصديقها بسلاسة، كأحلامنا! وذلك بغية تذكر أن ذريعة اللاعقلانية لا يمكن أن تكون مجرد معارضة لما يُبحث حول اللاشعور. وتعداد «كلين» للأهواء والتخيلات الوهمية الوحشية للطفل لن تبدو مرفوضة إلا لذلك الذي يخلط ما بين اللاشعور ونسيان الذكريات. وإذا كان من الواجب الاعتراف بجدارة «م.كلين» بشكل أساسي، فهذا يعود لإشارتها بأن حركة الاستبطان هي انتقال إلى المغالاة والخروج عن المألوف، إذ إن الأطوار اليافعة للأبوين، ومجموعة التصورات اللاشعورية للأم وللأب، ليست إلا علاقة مبهمة مع الأبوين تحت المراقبة. استدماجهما، وضعهما الداخلي، مشكِّلة عالماً داخلياً، راسمة الملامح رسماً كاريكاتورياً مثيراً للضحك، ومستحضرة شخصيات أقرب لمنحوتات «نيكي دي سانت فال» من أن تكون انطباعاً نزيهاً للوحة فوتوغرافية. الملاحظة المباشرة للرضيع والطفل لن تتمكن إطلاقاً من إرجاع هذا الإعوجاج الجذري لعوالم خيالية وواقعية. ويمكننا مع ذلك أن نجري حول ذلك تصوراً تقريبياً، حيث يكفي تأمل الحيوان المفضل ذي الشعر الطويل، بهيكل وحجم مُنتقى وفقاً

لإسقاطات الطفل. ماذا يتبقى بعد المعركة؟ الجلد وقد جُرِد عن آخره، البطن يُخرز بطعنات متعددة وفي أفضل الأحوال تنجو إحدى الأذنين..إلخ. «الدب الموبَّر» ممزق عدة مرات، ثم مقطّع ومصلّح، أو أخته تشهد تماماً بالعنف المزاجي للعاطفة. ألا يتوافق هذا إلى حد كبير مع الحياة المزاجية التخيلية الأولى على حساب الواقع الخارجي؟ ويلاحظ «جونز» أن إهمال الواقع الخارجي ليس خطراً جدياً للغاية، في حين أنه من الممكن دوماً، حتى المحلل النفسي، أن يقلل من شأن الواقع النفسي[1].

الخيالي الذي وصفته «م. كلين» ـ على نمط واقعي تماماً ـ هو ذو مانوية مطلقة، يشترك فيها «الجيد» (الذي يرضي ويصلح) و«الرديء» (الذي يحرم ويدمر). ويسيطر على المشهد هذا الخليط غير المتساوي من التدميرية وحالات القلق الفصامي (من تبديد القوى) وذهاني (للإضطهاد). الإحسان للأدوات، والإشباع الذي تناله يوازن بصعوبة المنظومة التي اجتاحها الاضطهاد والعذاب (مشرف على التصور السادي للجماع الأبوي): وهذا يفرّغ ويمتص ويمزق ويقصي..إلخ. كيف لا يتم خروج مصاب بالذهان من مغامرة كهذه؟ الحقيقة أن هذا السؤال يطرح نفسه أحياناً.

1 ـ الهوى التخيلي الوهمي المؤسِّس للأنوثة: يختلف النمو

(1) يقدم «إ. جونز» أطروحاته حول الأنوثة في مقالات ثلاث: النمو المسبق للنزوع الجنسي الأنثوي (1927)، الطور القضيبي (1932) والنزوع الجنسي الأنثوي البدائي (1935)، وقد جُمعت في كتاب «النظري والعملي في التحليل النفسي» (بايّو 1969).

الجنسي للفتاة، كما تصورته «م.كلين»، جذرياً عن التصور الفرويدي، وهذا لا ينفي بعض الارتباطات الخفية.

تستغل «م. كلين» ثغرةً، فتحها فرويد نفسه في نظريته، لتدخل منها بتساؤلاتها الخاصة. فقلق الإخصاء يلعب دوراً حاسماً في عصاب الرجل، لكن هذا لا يسري على المرأة، كما يلاحظ فرويد، فالإخصاء بالنسبة لها عمل مُنجز[1]. ومحاولة فهم الأنوثة من خلال عقدة الإخصاء ونواتها، شهوة القضيب، لاقت من هنا هشاشتها. فالقلق البدائي الأصلي للفتاة والمرأة، كما تشدد «م. كلين»، يتعلق بالجسد الداخلي، وهذا ما غاب تماماً عن اعتبارات فرويد، إنها الخشية في أن ترى نفسها مستلبة، أو يُلحق الأذى بأحشاء جسدها، وبالدرجة الأولى، أعضائها التناسلية. اكتشاف مصدر هذا القلق يعود بنا لأن نعرض التكوين النفسي للأنوثة.

الثدي الأمومي هو من أجل الرضيع، الأداة الأولى، وهو النموذج الأولي لجميع الأدوات اللاحقة. إنه ينبوع جميع الإشباعات، وهو كذلك الحارم منها. فوجود أكبر الحنان والغيرة الدنيئة الخسيسة عند المرأة ليس له أصل آخر، إلا هذا التباين في الفترات الأولى ما بين ثدي الحب وثدي الكراهية.

الحرمانات لها مصدر خارجي ـ من خلال النقصان والكبت وبكل بساطة الانسحابات من الأم ـ وعلى الأخص داخلي. فرغبة

(1) Inhibition, symptôme et angoisse (1926),PUF, «Quadrige»,1993, P. 38.

الطفل هي فعلياً رغبة إشباع لاحدود لها، مصدِراً، على نحو ما، من ذاته الحرمانات التي تعترضه. فالعدائية، وبالأحرى الكراهية، التي يشكل الثدي أداتها، تستمد أيضاً من مصدر آخر، إنه العدوانية المنفية للطفل. إنها تدفعه إلى المص والإفراغ والافتراس... ويحمي الطفل نفسه تجاه أهوائه السادية الخاصة المشحونة بالقلق، قاصداً الثدي الأمومي في التهجمات التي هي في البداية تهجماته. الناحية «السيئة» للثدي هي إذاً نتيجة تصريف بين إسقاطات وحرمانات.

وعلى خلفية هذه المجابهة يحدث الانعطاف نحو الأنوثة، بالنسبة للفتاة كما للفتى، حيث الأصلي بالنسبة لـ «م.كلين» هو أيضاً مؤنث فيما هو مذكر بالنسبة لفرويد.

«أعتبر حرمان الثدي السبب الجوهري في التحول نحو الأب»[1] الانعطاف نحو الأب، أو الارتقاء نحو الأنوثة، يكمن في هذه الفترة، حيث الحرمان الفموي الذي عانت منه الفتاة من ناحية الأم أدى بها لأن تتحول عنها، وإلى التمسك كاداة للإشباع بقضيب الأب. هذا الانعطاف، لا تتردد «م.كلين» في تحديد تاريخه في الفصل الثاني من السنة الأولى، إذاً مبكراً جداً.

القضايا المتعددة تنبثق مباشرة، وبلوحة خلفية، مع التساؤل: «كيف لهذا أن يصبح مدرَكاً؟» الذي يدين كثيراً للكبت. كل عنصر من الأطروحة الكلينية يكتسب إمعاناً خاصاً. في بادىء الأمر، القضيب،

---

(1) Les stades précoces du conflit œdipien (1928),Essais de psychanalyse. Payot, 1980,P. 237.

وبه كأداة جزئية، ينزاح في الهوى التخيلي من جسد لآخر (أي من الأب إلى الأم)، والذي هو مثار البحث، وليس من الأب كشخص وكأداة كلية. الأنوثة الأولى أوديبية كما تذكر «م.كلين»، إنما ليست إلا بين أدوات جزئية تخرج بهوىً، فهناك الثدي (القابل للكراهية)، والقضيب (المشتهى، ثم المتماهي) والفتحة الشرهة للطفلة (الفم والمهبل معاً، لنا عودة إلى ذلك). ومع ذلك، الفعل الوحيد هو في أن يكون القضيب مُتصوراً بالخيال الطفولي كما لو أنه «قضيب الأب»، وطيفه على الأقل حاضر سلفاً، والشيئ ذاته بالنسبة لـ «ثدي الأم». كيف تعبُر الفتاة من القضيب، المدمج فموياً، إلى الأب، كـ «أداة نرغب أن نحبها ونرغب أن تحبنا»؟ النص الكليني، يستعمل بمحض إرادته «القضيب» و «الأب» كعبارات قابلة للتبادل، ولا يسهّل إدراك التطّور.

العنصر الثاني الذي ينبغي التوقف عنده هو المنعطف نفسه، أو بالأحرى التغرير. ولكي تبتعد جداً عن النظرية الفرويدية، تلحقه «م.كلين» بنقطة محددة: الاتجاه نحو الأب (أو قضيبه)، وهو أولاً التحول عن الأم (أو عن الثدي)، والتحول إلى الكراهية. الصلة الأولى بالأم بالنسبة لفرويد، والثدي بالنسبة لـ «م.كلين»، يتركان في النفس بصمات وآثار مماثلة. والفارق بين وجهتي النظر ليس بأقل حساسية في ذلك، وتكفلت «م.كلين» بالإشارة إليه: «يبدو أن ما تتمناه الفتاة قبل كل شيئ، هو إدماج القضيب الأبوي بصيغة إشباع فموي، وبالأحرى امتلاك قضيب له قيمة صفة رجولية». والتمني يكمن في قضيب يوضع في الداخل وليس رغبة زائدة خارجية،

مشابهة لزائدة الفتى. الوضع في الداخل وعدم التشبيه...غايتان ترجعان إلى تصويرات نفسية مختلفة جداً.

2 ـ **الأولية الفموية**: من الثدي إلى القضيب، يبقى الانزياح على الأرضية الفموية، على الأقل من الناحية الجوهرية. إنه المطلب الفموي في المص، والذي ينمو مع الحرمان من ثدي الأمومة، والذي يخلق الصورة لعضو يقدم ينبوعاً لا ينضي من الاشباعات، هي نفسها فموية. أول علاقة تخيلية مزاجية بالقضب، النموذج الأولي المثالي للجماع، هو التهيج الفموي للعضو الذكري، إن ما كانت تصفه «بياتريس دورماسيو» على طريقتها، لم ينقطع عن التذكير بالهستيريا من خلال عَرَضِه في الإقياء. والدور الذي يلعبه اللسان، كقضيب فموي حقيقي، في العشقية المثلية الأنثوية يجد كذلك مصدره، كما يذكر «جونز»، في هذا الاتصال الأول.

اقترب فرويد أحياناً إلى درجة كبيرة من بناء مماثل، من خلال عيادته مع «دورا»[1] وكذلك في بعضٍ من تطوراته النظرية. مذكراً بملاحظات طبيب الأطفال «ليندنر»، وهكذا من خلال «رضاعة التلذذ» يكتشف الطفل المنطقة التناسلية مانحة اللذة ـ منزلقاً من عشقية ذاتية (بطريقة المصمصة) إلى الأخرى (الاستمناء) ـ ويشير فرويد إلى «الجذر الفموي الفعال للإفادة العشقية من القضيب»، وهو بمثابة وريث لحلمة العضو الأمومي. وستبقى مع ذلك عقيدته بأن هذه

(1) Fragment d'une analyse d'hstérie (1905), in Cinq psychanalyses,op.cit, P. 37.

الأهمية لا تتفعّل إلا بعد انقضاء الأمر ـ الإشكالية الأوديبية، لنقل بين 3 ـ 5 سنوات ـ وليس في عمر الرضيع بأحاسيسه الأولى.

المجال الفموي الذي يسبح فيه خيال الطفل الكليني، والمقصود هنا الفتاة، لا يعني الفم وحده، إذ منذ ظهور الميول الأوديبية ـ ما أن تتجه الفتاة نحو القضيب الأبوي ـ ، «تتيقظ معرفة لاشعورية للمهبل وأيضاً أحاسيس في هذا العضو وفي باقي الجهاز التناسلي». الفارق بالتحديد دقيق بين الأطوار السابقة للنزاع الأوديبي والأطوار المتأخرة. وتظهر الدوافع التناسلية في نفس وقت ظهور الدوافع ما قبل التناسلية، وفي بادىء الأمر تهيمن هذه الأخيرة عليها، ثم تؤثر بها بعد ذلك وتحولها. وبصورة تبادلية، تستمر التناسلية في حمل آثار الدوافع ما قبل التناسلية، بما فيها طور النضوج الجنسي النفسي.

فالتناسلية والفموية، الفم والمهبل يتشاركان في الغاية نفسها: الاستقبال. والتوازن بين القضيب والثدي، الذي يصحبه انزياح من «أعلى إلى أسفل»، ينشّط بصورة مبكرة جداً الصفات الفموية المستقبلة للعضو التناسلي الأنثوي، ويعد المهبل لتلقي القضيب. لهذا التماثل في الغاية بين الفترة التأسيسية وفترة النمو الأخيرة، نتيجة في استمرارية النشاط الجنسي النفسي للفتاة لا يعرفها الفتى. وبالفعل، بالنسبة له، الغاية الدافعية يجب أن تتحول من «استقبال» إلى «اختراق». وفي تمثيله للذكورية كأصلية، كان فرويد يَعِدُ الفتاة بمهمتين ثقيلتين عليها إتمامهما (تغييرات الأداة ومنطقة التهيج الجنسي)، قبل أن تنضم إلى جنسها، فيما الفتى يوفر على نفسه

هاتين المهمتين. وفي التفكير بأ ن الأنوثة أصلية، إنها الاستمرارية التي تغيّر الميدان، فتغيير الأداة الذي تجريه الفتاة من الثدي إلى القضيب يظل بالنسبة لـ «م.كلين» ثانوياً بالنسبة للحفاظ على الاستقبالية. «مهمة» الفتاة هل تجدها مخففة؟ لا شيئ أكيد على الإطلاق. وينبغي في الواقع، الإشارة إلى ما يلي: الحركة (التي في البداية أهوائية طارئة) والتي بها يُدمج القضيب، متجانسة مع حركة الاستدماج. وبعبارات أخرى، التقدم النفسي الأساسي الذي بواسطته يتكون اللاشعور، وما وراءه، الباطنية، هو رسم منقول بحذافيره للإيلاج الذي يحدد الوضعية الأنثوية. فالباطن الأنثوي واللاشعور هما على مستوى واحد إلى حد ما. وسندرك بيسر بنتيجة ذلك، أن إطلاق الفتاة بالعلاقة مع الأطوار الأولية، وبالعلاقة مع تأثير اللاشعور يجد نفسه معقداً بصورة جدية.

لنبقَ قليلاً مع تواطؤ الفموية والتناسلية الأنثوية. إنها نقطة لا تنقطع العيادة السريرية عن تأكيدها، وليست فقط في الحالات الهستيرية. فمِن فقدان الصوت إلى المناغات، مروراً بكثير من التظاهرات الأخرى ـ كالمرور الإلزامي لبعض المرضى على محل الحلويات بعد خروجهن من جلسة التحليل ـ، يقدم الفموي للتناسلي الذي لا يتوصل إلى التعبير عن نفسه، مسلكاً تراجعياً متواجداً تماماً. وكان رجال الكهنوت في القرون الوسطى يتعقبون «نقنقة» أو «ثرثرة» النساء ـ السيل الجارف للسانهم ـ بنفس الضراوة والفسق. وربما ينبغي الاعتراف لهم، مع تجاوز حالة عدو المرأة الواضح، ببعض البصيرة وبعد النظر، إنهم ينطلقون من الثرثرة، ومن التهيج الذي

يصفها، كعَرض هستيري عام: كونها أصبحت المجال المُختار للنشاط الجنسي، وبهذه المرة إنه الانزياح من أسفل إلى أعلى الذي يستولي على الكلام نفسه. والأمراض ذات النمط الأنثوي، كمرض فقدان الشهية والضور (الجوع البقري)، تطرح مشاكل من نمط آخر وتسوق إلى تساؤل عما في الأنوثة يسمح بنشاط جنسي فموي قديم للبقاء تقريباً على الوضع نفسه.

الفموي، التناسلي... قوة الترابط التي تُنسج من الواحد إلى الآخر، لا تشير إلا إلى غياب أكثر للسجل الفموي في التكوين النفسي للأنوثة الذي تقترحه «م. كلين». وحول هذه النقطة، يجب أن نكون أكثر دقة: إذ إن الفموية غائبة تماماً عن النظرية الكلينية. وفي فصل السادية على وجه الخصوص، يشغل البراز بقوته السامة والمدمرة حيّزاً في المقام الأول في أهواء وتخيلات الطفل، وتحديداً الفتاة، في الدائرة الجهنمية للتهجمات والأعمال الانتقامية التي تربطها بأمها. وكلما اعترفنا بهذه الناحية من النشاط الجنسي الفموي، ينبغي التحقق تماماً أنها لا تلعب أي دور معين في تكوين الأنوثة كما هي. مع أن «أندرياس سالوميه»، بتوغله بالمشاهد الفرويدية يهرب من المنطق القضيبي، بل على العكس، سيدعم بطريقة مقنعة، تضامن الفموية والتناسلية، ولنا عودة إلى ذلك.

أحد الأسباب التي تجعل الفموية هامشية بالنسبة لـ «م.كلين» تعود لأحد المظاهر الرئيسية لنظريتها. فالهوى الطارىء يكتسب عندها مكاناً مطلقاً تقريباً، وذلك منذ الفترات الأولى من الحياة، إنها تدعم فكرة مستبعدة جداً عن فطرية الأهواء الأولى. واقع أن الجسد الذي

يشابه جسد الأهل، لا يلعب إطلاقاً في تصورها إلا دور تأكيد، «الجيد» مثل «السيّئ» أو دور إعادة التأمين. وامتدادية الواقع النفسي عند «م. كلين» يلامس المثالية أحياناً، فالهوى التخيلي الطارىء يخلق عالماً أكثر من أن يقتبسه. والشرج بتمثله البسيط كفتحة ـ وليس من ناحية مقاربته الجسدية، منطقة تهيجية وملتبسة مع المهبل ـ لا يضيف شيئاً على الهوى التخيلي الطارىء المؤسِّس للأنوثة بإدماجها القضيب بالفم أو المهبل.

3 ـ **داخل جسد الأم**: يتعقد انعطاف الطفلة نحو القضيب بمعطيات أساسية، مثقلة بالنتائج وبسداد كبير سريري للرأي، للنساء كما للرجال. وبالنسبة لقضيب الأب، فليس إليه تتوجه رغبة الفتاة في تلك الآونة، كي تحصل على الأداة المشتهاة. إنها تبحث عنه وتناله هناك حيث يوجد بصورة وهمية داخل جسد الأم. وفي هذا العمر المبكر، يُعتبر جسد الأم بالنسبة للطفلة قابلاً لاستقبال كل ما هو مرغوب (ثديان، قضيب، براز، أطفال). مكان لجميع التقصيات، ومشهد تدور فيه مجمل الأحداث الجنسية، الجسد الأمومي بالنسبة للفتاة هو فضاء إسقاطاتها، وينبوع لا ينضب للأدوات التي تُدمَج في آنٍ واحد. هذا السياق الأخير، يكثف آليات التماهي (أن تكون مثل) والتوظيف (تمتلك وتستقبل) وهذا الأكثر جنسية من بين الإثنين بشكل مباشر. الأنوثة هي نتاج حركة مزدوجة من التماهي بالأم (بجعل محتوياتها خاصتها)، وبالانعطاف نحو الأب (في إدماج واستقبال قضيبه). النظرية الكلينية قرّبت ما أمكن هذين المظهرين، طالما إدماج (القضيب) يعود إلى تملك (محتوىً أمومي) بصورة متوافقة. ويبقى أن

محرك التقدم، البحث النهم عن الإشباع، يقود للاعتراف بتوظيف القضيب بشبقية طفولية، أي دور أولي في التكوين النفسي للأنوثة.

تتخيل الطفلة أنه خلال جماع فموي تدخل الأم القضيب وتحتفظ به بعد ذلك في داخلها. وقول «ال» قضيب (بصيغة الجمع) قد يكون أكثر دقة: إذ إن الهوى التخيلي يجهل التقتير أو الشح، ويفترض أنه في كل جماع يتوافق إدخال جديد. وما بين الفتاة والقضيب هناك الأم، وبأكثر من مستند، وليس فقط كمنافس أو كعائق، إنما بصورة أكثر راديكالية كـ «مكان» يتواجد فيه قضيب الأب. فكل لذة تنالها الطفلة هي لذة مسلوبة من الأم، وبمثابة فوز عليها. والعدوان والتدمير يرافقان حركة الاستيلاء على القضيب، وتجريد الجسد الأمومي. هذه التخيلات الوهمية، ونظراً للخوف من الأعمال الانتقامية التي تثيرها، هي المصدر الأكثر عمقاً للموقف التهيجي القلق للفتاة، حيث نعثر على مسألة القلق، والتي منها جاء التساؤل الكليني ليشق لنفسه طريقاً. ويبدو لـ «م.كلين» يمتلك التطور نحو الجمال، كما لفرويد، قيمة متفاعلة، إنما باتجاه مختلف: ليس من أجل ستر «العيب» التناسلي، إنما لكي يهدىء الكمال الخارجي، القلق الخاص للجسد الداخلي.

إنه أمر تحديد مكانية القضيب في الهوى التخيلي، وهو في أمر آخر يتم إدراك إعداد تصور ما من قبل الطفلة. انطلاقاً من أي عناصر يتألف هذا الأمر؟ المسألة أقل إلحاحاً عندما يتعلق الأمر بالثدي، فالرعاية الإرضاعية تجلب في هذه الحالة ضمانتها الواقعية. ولا شيئ من هذا بالنسبة للقضيب، فالعمر المبكر الذي تحدد «م.كلين» عليه

الانعطاف نحو الأب يقلل المساهمة الممكنة للإحساس، حتى ولو توجب على هذا الإحساس أن يمتد من القضيب إلى مجموعة الدلالات الجسدية. فالإجابة التي تحملها بالتحديد ربما هي النقطة الأضعف لبنائها التالي: يقيم أوديب الفتاة بشكل مباشر «تحت التأثير المهيمن لعناصره الغريزية». إن التذرع بالغريزة وثبات البرنامج الذي يصفها، لإدراك النشاط الجنسي الذي يتخذ كل الحرية (بل يجهل) الغائية التناسلية، هو الأقل إقناعاً. بالإضافة لمعالجته بكثير من الوقاحة والطلاقة، موضوع أن الأمر التناسلي لا يثبت أبداً النقل من صفات مكتسبة، بالأحرى سيناريوهات تخيلية. فالحل الذي تورده «م.كلين» هو ضروب من الإيمان أكثر مما هو علم.

مع ذلك، هناك مسالك أخرى في تسليم الأمر لفطرية أفكار اللاشعور. و«م.كلين»، تفتح إحداها، إنما دون المضي بعيداً : «تقوم علاقة الأم بالطفل على علاقاتها الأولى الاعتراضية». حسبما يمثل الطفل بالنسبة لأمه القضيب «الجيد» أو «السيئ»، إنه فعلاً العالم التخيلي الوهمي للطفل نفسه الذي يجد نفسه معدّلاً فيه. وجهة النظر هذه، ووجهة نظر الذاتية الداخلية، لوقع اللاشعور الراشد على النزوع الجنسي النفسي للطفل، هو نادراً ما تساءلت عنه «م.كلين» كما كان يفعل فرويد. وفي أبحاثها حول الثدي، أشارت «جاكلين لانوزيير»، أنه يشكل مع ذلك مظهراً لغنىً كبير، سريرياً ونظرياً[1]. *فالثديان هما عضوان بطيئا النمو، وتُؤخذ عشقية الثدي في شبكة تصورات مرئية ـ أو أن نظرة الفتاة الشابة المراهقة تتقاطع مع نظرة الرجال، ومع الأب في الموقع*

---

(1) De l'allaitement comme scène originaire de séduction,Actes du colloque «Nouveaux fondements pour la psychanalyse» , à paraître au PUF en 1994.

الأول ـ وهي تصورات ليست بلا ارتباط مع التصورات التي تولدها استعراضية التعري القضيبي للفتى الصغير. وعندما تهب الأم الثدي للطفل، ما هي التصورات اللاشعورية التي ترافق الحركة الإرضاعية؟ وضمن أي مقياس، انزياح الثدي إلى القضيب في هوى الطفل لا يسبقه تعادل من نفس النمط من جانب لاشعور الأم؟

اللجوء إلى الداخلية الذاتية ليس بلا غموض. فعبر أي مسالك تنتقل التصورات اللاشعورية من الراشد إلى الطفل؟ وتحت أي شكل تتسجل في المخطط الجسدي الروحي الطفولي، ولأي علاج نفسي تخضع؟ ليس يسيراً على الإطلاق وصف التطورات نفسها، فيما تكون تأثيراتها سهلة البلوغ أكثر، بما في ذلك أحياناً خضوعها للملاحظة. وقد أشار كذلك «سبيتزو وولف» أن الأطفال وحدهم، بإقامتهم صلة مع الأم ذات النوعية الجيدة، إلى حدٍ كافٍ، كانوا يطورون ممارسات استمناء تناسلية. ومن جانبهما، «موني و إيرهارد»، أشارا، بطريقة تجريبية، أن ذاتية جنس الشخص (ذكراً كان أم أنثى)، تتعلق أولاً بالجنس الذي تربى فيه الطفل، أجدر من التهيؤ التناسلي. وهكذا تبدو تماماً الناقلية الجنسية على صلة بالوضعية الجامحة للأبوين، على الأقل أحد منهما، والذي لا يتخلى عن الجنس المتوقع رغم التكذيب الذي يجلبه التخيل الوهمي بالولادة.

بغية التخلي عن البحث عن إغراء واقعي حول أصل حالات العصاب، لم يثبّت فرويد عن ذلك أقل من فكرة الإغواء (عن انعطاف للطبيعة الجنسية) للطفل عن طريق الراشد، مختلطة طبعاً بحركات الرعاية، إنه شيئ قابل للاكتشاف في نصوصه حول الأنوثة. ولا يمكننا ملاحظة أن الراشد يعامل الطفل تماماً كـ «أداة جنسية»، وألا نتساءل عما تسفر معاملة كهذه بالنسبة لهذا الطفل. وقد طوّر «فيرينزي» فكرة مقاربة، حين أشار للفوارق بين الأنشطة الجنسية الراشدة والطفولية، البعيدة الواحدة عن الأخرى بعد الشغف والحنان. وفي تأكيده أن «رغبة الطفل، هي رغبة الآخر»، يندرج «لاكان» كذلك في هذا

المنظور من الداخلية الذاتية، حتى لو كان كلامه، لأنه يبقى مديناً للجدلية الهيغلية بالاعتراف بالقريب، يبقى في الميدان اللغوي، في حين أن التسجيل ما قبل الشفهي يسود العلاقات الأولى بين الراشد والرضيع. وقد اقترح «ج. لابلانش» مؤخراً تعميم نظرية الإغواء، ساعياً الأخذ في تغيير وضع الطفل بالعلاقة مع الراشد، والراشد بالعلاقة مع لاشعوره الخاص، مصدر الدافعية، مما يجعل النزوع الجنسي الإنساني غريباً جداً. هذا الافتراض الأخير يبدو لنا بصورة مباشرة، متعلقاً بالتكوين النفسي للأنوثة، ولنا عودة إلى ذلك لاحقاً.

4 ـ الأنا الأعلى والقلق: الانزياح من الثدي إلى القضيب، ليكون مؤسَّساً للأنوثة، لا يشير إلى أي فاصلٍ في وصف التصورات. وما تحسه الفتاة بالنسبة للقضيب المستدمج يعكس علاقاتها بالثدي الأمومي، بين مص وافتراس. وبعبارة أخرى، تباين الثدي وفقاً لـ «الجيد» و «السيّئ» لا يلبث أن يقسم وريثه. فطمع وعدم شبع الطفلة، يكفل في جميع الأحوال فشل الاشباع، فشل مصدر «السيّئ». وينجم عن ذلك حركة عودة من الأب نحو الأم، الفتاة المنتظِرة من تلك الأم، الواقعية والمستبطنة، دعماً ضد القضيب «السيّئ».

نصيب الأب في الحكاية جدير بالأهمية. فمحبته وطيبته المحتملتان تشهدان في صالح قضيب «جيد» مستبطن، وتسهّل استبعاد السادي المدمِّر. وفي حالات أخرى، يحدد سلوك الأب تجاه الفتاة ثمة مشاعر من الكراهية والقلق بالنسبة للقضيب، بحيث ستصبح باردة جنسياً أو ستهجر دورها الأنثوي.

فالخضوع للقضيب السيّئ المستبطن يجر الحياة الجنسية للمرأة إلى أقدار تشهد بشراسة الصراع الداخلي. إذ تشير الماسوشية الأنثوية على أن الامتحان الواقعي للنشاط الجنسي لا يمكن أن يحدث إلا مع

قضيب «سيّئ»، فالمرأة ستتوجه نحو شريك سادي لتضمن لنفسها الألم الذي سيُقدَّم لها. إلا أن «م.كلين» تشير إلى الدور المهدىء، بشكل متباين، الذي يلعبه حل ما للاقتصاد النفسي، بقدر ما هو صحيح أن الآلام الخاضعة والصادرة عن مصدر خارجي، لا تُقارن بشيئ مع العذابات التي تُنزلها أخطار الأهواء الطارئة التخيلية الداخلية.

البحث الذي تم في سجلات العلاقات الجنسية له مصير آخر، حيث تنتظر المرأة تكرار الفعل الذي يفشل في الواقع على المجابهة التهيجية القلقة مع القضيب الداخلي.

وتجد البرودة الجنسية كذلك هنا أحد مصادرها، إذ تخشى المرأة، في آن واحد، الألم الذي يحدثه لها القضيب والألم الذي يمكن أن يحدثه مهبلها للقضيب، على خلفية سادية مهيمنة، بتصوره هو أيضاً ك «أداة مميتة». فيما يغطي صمت التهيج الوظيفة الإيجابية، من وجهة نظر الاقتصاد النفسي، وفي إقصاء العناصر التخيلية في القلق التهيجي. ونرى في الأمثلة الثلاثة المرضية: الماسوشية، والنشاط الجنسي القسري، والبرودة الجنسية، تفعّل «م.كلين» في الواقع الخارجي دور علاقة القلق، إذ إن الاستعانة بالواقع، مع أنه مجحف وضار، يحد من المغالاة الخطرة للعالم الداخلي. والانتقال سن الثدي إلى القضيب يفتح الأنوثة على تباين القضيب، إن كان «جيداً» أو «سيئاً»، كما يمهد لمسائل الأنا الأعلى والقلق. وبصورة مناقضة لما يعتقد فرويد، تتعرض الفتاة، وفقاً لـ «م.كلين»، أكثر من الفتى لمقدرة الأنا الأعلى. كيف يُفسر ذلك؟ الإجابة في سياق أُشير

عنه سابقاً: فالتناسلي عندها يندرج في استمرارية مستقبِلة مع الفموية الأولية، واختراق القضيب هو صورة لحركة إدماج وولوج مكوِّنة للروح. وينجم عن ذلك مقاربة بين الأنوثة وللاشعور، وبالتالي خضوع كبير جداً للداخل، وللأدوات الداخلية، وتحديداً للقضيب المدمَج. أما المهبل، كعضو داخلي، يوظَّف ككل أحشاء الجسد، للقلق الأكثر عمقاً للمرأة.

الوضعية الخارجية، وإمكانية رؤية القضيب، تمكّن الفتى من الاطمئنان عن عمله الداخلي الجيد. إنه يتصرف، كما كانت «ك.هورني» تذكر، بوسيلة يتحقق بها أن المجازفة بتهجمات سادية لا تطال سلامته. لا شيئ من هذا القبيل لدى الفتاة، وبالتأكيد، قدرتها على الانجاب مقدَّرٌ لها أن تلعب دوراً مشابهاً، ويثبت لها صفة عدم إتلاف داخلها: فطفل سليم وقوي هو التفنيد الحيوي لحالات التدمير التي تُنسب للأدوات المستدمجة، وعلى العكس، أي صدع أو ثغرة في النمو الجيد للطفل تثير عند الأم حالات من القلق تتعلق بالجسد الداخلي. لكن الأمومة لا علاقة لها بالطفولة. فهي مرحلة تأتي فيما بعد، والطفل بالنسبة للفتاة وحالة القلق، ليس إلا قيمة مستقبلية.

الصفة التدميرية والقلق الذي يصاحبها، يحتلان في النظرية الكلينية شأناً ترجيحياً. ناهيك عن الأمر الحساس المتعلق بمسألة الحيض ومعايشتها خلال مرحلة المراهقة، فإذا أُشير للزهو الذي يشكل هذا الحيض مصدره، فصلاحيته، على الخص، للقلق هي التي تؤثر بـ «م. كلين»، ارتباطاً مع تصور الداخل الدامي الذي يؤكد عنف الأعمال الانتقامية التي تمارسها الأم، أو تهجمات القضيب «السيّئ».

والمنحدر الآخر، الجانب «الجيد»، الذي عليه نجد الثدي المانح، والقضيب المبارك المغيث، والداخل غير الممسوس، ليس غائباً. فالقدر النفسي الجنسي للفتاة، والمرأة يتعلق بالتوازن بين «الجيد» و«السيّئ». في بادىء الأمر، هو حقاً النشاط الجنسي ذاته. فالبرودة الجنيسة الأولية، شبه الطبيعية للمرأة، تدل على أن الحياة الجنسية، لكي تكون مشبعة، توجب الانتصار على القلق أمام القضيب «السيّئ» والمهبل «المدمّر». وهي حقاً الأمومة أيضاً. إذ يتعقد الطفل القادم بالمعطيات الرمزية الإضافية: هل هو وريث القضيب («جيد» كان أو «سيّئ»؟)، ووريث الأداة الشبقية المدمجة، أم هل يأخذ تتمة الرواسب بصورة لاشعورية؟ في هذه الحالة الأخيرة، يتم تصوره بين الأم والبنت، بنمط أكثر نرجسية من اعتراضية، مع المخاطرة في رؤيته وريثاً للمقدرة الكاملة والسمّية المتوافقة بالتخيل الوهمي مع الغائط. وما يجدر بالاهتمام هنا، تدفق القلق الذي قد يلحق بالمرأة عند الوضع، عندما يستجيب الدفع بإخراج الغائط بدلاً من الطفل المنتظر، جاعلاً بضراوة توافق الواقع مع التمثل الوهمي التخيلي.

مذكرة حول رغبة الطفل:

يكتب فرويد قائلاً: «أن يمتلك الطفل حياة جنسية، فهي لا يمكن أن تكون إلا ذات طبيعة فاسقة، حيث ينقصه، عدا بعض الدلالات الغامضة، كل ما يجعل من نشاطه الجنسي وظيفة إنجاب»[1] القصد واضح ويشير بالطبع إلى

(1) Introduction à la psychanalyse (1916), PB Payot, P. 296.

الطريقة التي يتكون فيها النشاط الجنسي الإنساني في تحويل الغريزة. بلا شك ليس هناك أي سبب لإنكار وجود غريزة التناسل عند الإنسان، ويندرج ذلك إذاً ضمن قائمة حفظ الذات كالمأكل أو التنفس، إنما ليس كالنزوع الجنسي بالمعنى التحليلي للعبارة. فالفورة أو الهبّة البلوغية هي بالتأكيد ما يستدعي في الدرجة الأولى تظاهرة غريزية. ويبقى أن النضوج الجنسي، فيزيولوجياً وتشريحياً، لا يُترجم بأي طريقة لدى الإنسان، خلافاً عن الحيوان، بالتحقيق الأوتوماتيكي لحلقة التزاوج والتناسل. حيث تنبثق مرحلة البلوغ على خلفية تاريخ نفسي جنسي طويل، يتميز بالكبت والتشكيل من اللاشعور. ويعزل عند الإنسان شيئ ما قد يكون غريزة التناسل وهو مهمة مستحيلة، لدرجة أن منهج غريزة ما يرتشح ويتغلغل بأحاسيس جنسية يفسدها التفعيل لا بل يلغيها. فرغبة الطفل، أو تجنبها، بل غيابها، مأخوذة هي أيضاً ضمن النشاط الجنسي النفسي للشخص. وليس من النادر أن طلب التحليل يلقى مصدره في استحالة إنجاب طفل، بعد أن استنفذ علم أمراض النساء سببية باعثة على ذلك.

التساؤل الذي يطرح نفسه بخصوص رغبة الطفل هو وضعها في اللاشعور. فبالنسبة لـ «م.كلين»، يعد الطفل في التخيل الوهمي أداة داخلية مثل غيره (الثدي ـ القضيب ـ الغائط)، ومنسوباً مثلهم أيضاً إلى نقطة التقاء تحتوي كل شيئ، «الجيد» و «السيّئ»: الداخل الأمومي. فيما تصور فرويد مزدوج: أخذ الأمور من وجهة نظر نظريته حول النشاط الجنسي الأنثوي ورغبة الطفل، لتكون رغبة طفل من أب، طبعاً رغبة لاشعورية، هذه النقطة الزانية تتواجد عند المرأة في الخوف، ونادراً ما يكون هذا الخوف غائباً، من أن تلد طفلاً «غير طبيعي» أو «مشوّه». إذاً رغبة لاشعورية، إنما ليست مع ذلك إلا الحلقة الأخيرة من سلسلة استبدالية، رغبة القضيب فيها هي الفترة الأصلية. وإلى جانب هذا الطفل والعضو القضيبي، هناك في نظرية فرويد تصوراً لاشعورياً آخراً، أكثر بدائية: الطفل والغائط ـ طفل داخلي ـ في التخيل الوهمي، والذي

أتى ليجيب عن التساؤل الطفولي حول الولادة. و «ماك برونسويك» تعمق في هذا الاتجاه من التفكير الفرويدي[1].

ويشير إلى أنه لدى الفتاة، رغبة إنجاب طفل تسبق بوقت طويل رغبة امتلاك قضيب. ولهذه الرغبة القديمة عدة مصادر: تنشأ أولاً عن التماهي مع الأم، فأن تكون أماً أي أن تنجب طفلاً. وتستمد بعد ذلك من المدى الشرجي، حيث تهيمن تصورات المنح والتلقي. إن رغبة الطفلة، السلبية في الفترة الأولى، تكون في تلقي طفل من الأم، قبل أن تكتسب شكلاً إيجابياً في تقديمه هدية إليها، ونحن نعلم أن جميع الهدايا القادمة لها تجذرها في المرحلة الشرجية. وفي وقت التناسل، يصبح هذا التخيل الوهمي في تلقي قضيب الأب في الجماع وما بعد ذلك الطفل. وينتج عن هذه التنوعات النظرية أن رغبة الطفل لا توافق عليها، وهذا ما لا تنقطع عن تأكيده العيادة السريرية. وقد يكون مستحوذاً كلياً ضمن حكم نرجسي، حيث نفكر بهذا الثنائي الأم والبنت، نفس قَصة الشعر، نفس النظارة، ونفس الملابس... الواحدة هي الأخرى مع التصغير، حيث تكون ثمرة شبقية (ليبيدو) الأداة. ويكمن أن تكون وريث أداة داخلية (رواسب ـ قضيب) أو البديل عن القضيب المرغوب.

5 ـ رغبة القضيب والذكورية: تدخل رغبة القضيب في الاعتبارات الفرويدية على الأنوثة. إنها بالمحصلة تجد مكانتها في عرض نظرية «م.كلين». منفذ على الأنوثة بالنسبة لفرويد، رغبة القضيب ـ تُفهم كتماهٍ ذكوري، في أن تكون كالفتى ـ وتسهم على العكس، وفقاً لـ «م.كلين» برفض الفتاة لجنسها الخاص بها، ورفض التناسلية الأنثوية. ومن هذا الرفض، يحمل الاستمناء البظري الأثر

(1) La phase préœdipienne du développement de la libido, art, cité, P. 283.

على الشكل التالي: «لأن الفتاة الصغيرة ترتبط بداخل جسدها، فالنشاط البظري يبعد المهبل إلى خلفية أول منظومة جنسية لها» وبلا شك، ليس هو الاتجاه الوحيد للاستمناء البظري، فبالفعل، إنه يتصاحب مع أهواء تخيلية طارئة مختلفة، والتي يتنوع محتواها بسرعة قصوى، وفقاً للتقلبات القاسية من مرحلة لأخرى للنمو الأنثوي. أولاً تقلبات ما قبل التناسلية، ثم تصبح هذه الأهواء التخيلية تناسلية بصورة سريعة (إيلاج القضيب الأبوي)، والأحاسيس المهبلية تثبت ذلك. ويشكل البظر كما تذكر «م.كلين»، جزءاً من الجهاز التناسلي الأنثوي، ومن غير المقبول على الإطلاق من ناحية التحليل النفسي الاكتفاء بتشبيه بنيته التشريحية بالقضيب لاستنتاج «رجولته» النفسية الجنسية. وتشهد النساء الخاضعات للتحليل بما فيه الكفاية أن الاستمناء البظري يتوافق بصورة جيدة جداً مع الهوى التخيلي ذي النمطية الأنثوية في أن (تُختَرق). لا تنكر «م.كلين» بأي حال من الأحوال أن البظر يستطيع أن يمتلك بالنسبة للطفلة أهمية تعادل القضيب، ثم بقضيب مخيب للآمال، لكن الأمر يتعلق هنا بـ «الحلقة الأخيرة لتتابع الأحداث» التي تقود الفتاة الصغيرة، في معركتها ضد القلق، من الداخل نحو الخارج.

الرغبة بقضيب خارجي، والذكورية الظاهرة للملأ الناتجة عنه، تخلصان إلى بحث التوازن مع القضيب «السيّئ» المولج. المنحدر والتدهور الذي اتبعته «م.كلين» هي و «ك. هورني» ومن بعدهما آخرين، يكمن في اعتبار رغبة القضيب كتشكيل لعرض مستعيد للأهمية الغريزية، وفقاً لمراحل نمو وتاريخ أي فرد. وتسهم رغبة القضيب في الأهواء التخيلية المدمرة (حيث يكون القضيب مدار

البحث إحليلي، وملائم للفتاة من أجل القدرة السادية في قذفه للبول، أو التناسل، ومختَلَس من أجل عنفها التدميري)، إنما أيضاً أهواءها التخيلية المصلِحة (لكي تعوِّض الأم عن القضيب الأبوي الذي سلبته الفتاة منها). وهي ليست مما ينفذ على الرغبة بإنجاب طفل (إلا أنه بصورة ثانوية)، إنما ما تخفيه هذه بالأعمال الانتقامية الأمومية، وشأن الطفل كشأن القضيب، لا يمكن احتواؤه أو إدماجه إلا بعد أن يُسلب في الداخل الأمومي. ويورد «جوهان ريفيير» في مقالة بعنوان: «الأنوثة كمظهر كاذب»[1]، مثالاً سريرياً حيث تتلاحق بشكل لافت هذه التبدلات المعقدة للوضعيات الذكرية والأنثوية. ووفقاً لمقياس اللاشعور الكليني، تشغل الأنوثة المرتبة «المرفوضة بامتياز»، هذه العبارة لفرويد، حتى ولو أنها تتوافق توافقاً سيئاً مع أطروحتها المهيمنة. وتتعارض الأنشطة الجنسية الأنثوية والذكورية كما يتعارض الداخل والخارج، وكما يتعارض القلق مع محاولة ضبطه. وليست «م.كلين» بعيدة عن أن تصبغ الإلحاحات والمضايقات النفسية نفسها بالصبغة الجنسية، على الأقل الاثنان الوحيدان اللذان تمسك بهما في علم النفس التأملي هما: لاشعور الفرد، القضيب الممثل للأنا وداخل الجسد الممثل للأنا الأعلى.

ثالثاً ـ كبت راديكالي

يكتب «جونز» قائلاً: لنكن ملكيين أكثر من الملك، أي كونوا فرويديين أكثر من فرويد. فعقدة أوديب هي نواة حالات العصاب،

(1) (1929), in La psychanalyse, n°7, PUF, 1964.

إنها حقاً للفتاة كما للفتى، ونظرية «م. كلين» والمقاربين لها، لا ترضى بإدراج نمو الفتاة النفسي الجنسي في الالتباس الأوديبي. بل تسعى في الوقت نفسه لإلحاق السخرية بفرويد. ذلك أنها لا تعتبر وجود (المهبل في الطفولة والهوى التخيلي المصطحب بإيلاج القضيب الأبوي) من الناحية النفسية، إنه بالفعل موضوع كبت راديكالي.

مبدأ الكبت هو دوماً نفسه، استبعاد التصورات التي لا يتمكن الأنا من مواجهتها دون اعتبار خطر سوء منظومته الخاصة. وحدّة الكبت، التي كانت «الأنوثة البدائية» أداتها، تفترض إذاً عنفاً خاصاً للتصورات التي تؤلفها. وبالنسبة لهذا الموضوع، ينبغي الإشارة إلى النقطة التالية: الانعطاف نحو الأنوثة يتولد من تجربة لا تقتصر على الانتقال من الأم إلى الأب، ولا حتى من الثدي إلى القضيب، إنما تكمن في «التقاء» مثير ومقلق مع المشهد البدائي بأن: القضيب الأبوي في البطن الأمومي. فمغالاة العالم التخيلي الوهمي، غير قابلة للانفصال عن مغالاة النشاط الجنسي الراشد تجاه الطفل، الزاخر بطاقاته من أجل التهيئة النفسية والشبقية. وتذهب «ك. هورني» في الاتجاه نفسه، في إلحاحها على «عملقة» القضيب الأبوي بالنسبة للفتاة. وحكم أن المشهد البدائي الكليني يجمع أدوات مجزأة في جماع ـ وليس أشخاص الأب والأم ـ يضيف تصوراً ما على الصفة المفسِدة.

التخيل الوهمي للمشهد البدائي، هو كذلك مصدر قلق بالنسبة للفتى، إذ كيف يتم تفسير الكبت العنيف، وعلى الأخص، الذي

يشكل أداة الوضعية الأنثوية، وكيف يُفسَّر رفض الأنوثة؟ لقد رأينا عناصر للإجابة تطرحها «م.كلين» واولئك الذين شاركوها بوجهة نظرها، فالأم نفسها في قيامها بخدمات حياتية (من خلال الرعاية) تخشاها الفتاة من أعمال انتقامية، تلك الأعمال التي لا يمكن أن تكون إلا ضمن الإطار (القديم) للإشباعات الأولية التي يشكل الثدي مصدرها. والتدمير الذي ترتابه الفتاة يتعلق بالجسد الداخلي، غير المرئي وغير المعلل والمقلق كاللاشعور. والغاية الدافعية للنزوع الجنسي الأنثوي (الإيلاج واستقبال القضيب) قريبة جداً من الغاية التي تنفذ بها إلى الحياة النفسية الجنسية: إدماج الثدي. وباختصار، تألف الأنوثة أيضاً، بشكلها المتطور، صيغ الأصل، هذه الفكرة، يمكن أن نتابعها فيما وراء أفكار «م.كلين» نفسها. وهذا ما يطرحه الفصل الخامس، وفقاً لمسائل مختلفة مثل: تحليل المثلية الجنسية الأنثوية، مروراً بالسلبية والماسوشية والقلق والنرجسية والمراهقة.

الفصل الخامس

قضايا وآفاق

أولاً ـ التكوين النفسي للعضوية التهيجية المهبلية

1 ـ تحليلات: الواقعي والخيالي: تُظهر الاختلافات والتناقضات حول الشذي لنظرية التحليل النفسي للنزوع الجنسي الأنثوي على طريقتها، صعوبةً في إدراك تكوين العضوية التهيجية المهبلية على غير نمط مفترض على نحو خاص. وينسِّق الغموض المتولد من الكبت تأثيراته مع تعذر الرؤية، و هي الصفة الداخلية للجهاز التناسلي الأنثوي. ومع ذلك لم تنقص الملاحظات. فمنذ عام 1925، كانت «جوزين موللر» تدعم شهادات طبية لوجود أحاسيس مهبلية مبكرة على صلة مع ممارسات استمنائية. وتشير «م.كلين» نفسها، إثباتاً لأطروحة مركزة من ناحية أخرى على الهوى التخيلي، إلى الدور الذي يلعبه السبر والاكتشاف (الفردي المتبادل) بالإصبع في المهبل، من السنوات الأولى. ومع ذلك قيمة هذه الملاحظات ليست إلا نسبية، ضمن المقياس الذي يكون فيه الطفل في حالة عاجزة عن رد الكيفية، فضلاً عن أن وجهة نظر التهيج هي وجهة التصورات المصاحِبة. القائم بالتجارب لا يفقد مع ذلك أي أمل.

ونجد «مارغوري س. بارنيت» تكتب البرنامج التالي: «ينبغي انتظار الدراسات اللاحقة للتأكيد ما إذا يُصدر التهيج الجنسي عند الطفلة» ارتشاحاً «مهبلياً مشابهاً للراشدين»[1]. وعندما يُحتمل مواجهة تجربة ما، ماذا نفعل باسم العلم؟ ومن سيتمكن عندئذ، من تمييز الظاهرة قيد الملاحظة من تأثيراتها المُثارة بواسطة تدخل المجرِّب؟ إن المصلحة من مقاصد ما تكمن في نيتها الظاهرة أقل مما تكمن في هوى تخيلي من الإثارة يدعمها، ويبدو لنا الهوى التخيلي يلعب دوراً بالغاً في تكوين النزوع الجنسي الأنثوي نفسه، وسنعود لهذه النقطة فيما بعد.

الملاحظة الجنسية، التي تسعى لوصف الطور الفيزيولوجي المشكِّل للذروة المهبلية بالتفصيل(عند الراشدة، هذه المرة)، تؤدي إلى تنوعية من الخلاصات التي تدل حدودها عنها. من تكوّن الأوعية المحدودة للمهبل ومن الطريقة الضعيفة في توزع الأعصاب، يخلص «كينسي» إلى إتباع أي إشباع مهبلي للتهيج البظري. هذا التصور، الذي أصبح أكثر شعبية في الولايات المتحدة، كما يكتب «جوديث كيستمبرغ» يقوم على أن «الرجال المزودين بمعلومات جيدة يمضون وقتاً طويلاً في محاولة إيجاد البظر متهيجاً»[2] وبإلحاحهما على دور العضلات المحزَّزة والملساء التي تضعها على المحك الأحاسيس

---

(1) «Je ne peux pas» en opposition à «Il ne veut pas» ,in La sexualité féminine controversée , PUF, 1976, P. 230.

(2) Le dehors et le dedans, le masculin et le féminin, La sexualité féminine controversée,op.. cit, P. 72.

النعوظية (الخاصة بهزة الجماع)، وجب على «ماسترز وجونسون» أن يناقضا وجهة نظر «كينسي» ويدعما أطروحة الحساسية الباطنية الأصلية. وعندما أشار إلى التضامن بين البظر والثلث الخارجي للمهبل، إنما «متناسياً» الثلثين الداخليين للعضو نفسه، كان على «م.ج.شيرفي» أن يقع في ذروة الارتباك باستخدامه استنتاجات «ماسترز وجونسون» للدفاع عن الطرح «البظري».

الدرس الذي نأخذه من هذا التاريخ الطبيعي، هو أنه في مادة النزوع الجنسي الإنساني، لا يعلمنا التشريح على الإطلاق إلا ما يمليه عليه الهوى التخيلي الطارىء. وبصورة خاصة هو شيئ لافت لدى «م.ج. شيرفي» في أن تعددية تصاميم التشريح الأنثوي لم تغطِّ إلا حين يقظة النظام الأمومي البدائي.

تعزل المقاربة التشريحية الفيزيولوجية شيئاً ما لا وجود له. فليس الجسد في جانب والهوى التخيلي في جانب آخر. فالنزوع الجنسي الإنساني هو نشاط جنسي نفسي لا انفصال بينهما، ويتعلق الأمر باستعادة ذكرى إشباع أو استحالة مبادرة إلى ذلك النشاط. مثال على الارتباك الذي يمكن أن يقود وجهة نظر المختص بالفيزيولوجيا التي جلبها إلى أولئك الذين أعقبوا «م.ج.شيرفي»، وينفون التعارض الكلاسيكي بين الأعضاء البظرية والمهبلية، متذرعين بـ «تزيّت» الانقباضات المهبلية التي تصدر بأي طريقة، مهما كان المكان المتهيج، ولنذكر أن كلمة تزيّت تُستخدم عادة لوصف رطوبة المهبل ولها نفس اشتقاق كلمة «مزيِّت» (زلق، لزج). منطق هذا الجهاز، إن أمكن القول، والذي يحكم على نفسه بعدم القدرة على فهم أنه

بالنسبة لامرأة ما، يتعلق الاشباع بأن يبقى البظر «مغموراً»، وأنه بالنسبة لأخرى تكون المتعة في تجنب الاختراق. دون التحدث عن الاستراتيجيات الفردية، كتلك المريضة التي كانت تصف الطريقة الوحيدة بالنسبة لها في تقبل القضيب في الداخل: «حصره في الداخل» (بضغط الفخذين)، لممارسة بعد ذلك فرك داخلي على العضو الساكن.

وفيما يتعلق بالنشاط الجنسي الأنثوي، ربما لدينا ما نتعلمه من المقالات القديمة في علم التشريح، حيث حدود الملاحظة تفتح المجال الحر للخيال، أكثر من الوصف الدقيق لأيامنا هذه. الهوى التخيلي (الذي ليس للنساء استئثار به) لداخل أنثوي يتم تصوره كقضيب أجوف، حل لفترة طويلة محل نظرية طبية، في أعقاب «غاليان وأفيسين»، فبالنسبة لهما، الجهاز التناسلي الأنثوي هو في داخله شكل مقلوب لما هو الجهاز الذكري من الخارج. فالتصور (المقلِق) للمهبل ذي الأعماق التي يصعب سبرها يتواجد في أقوال «أوريباز» (من القرن الرابع)، الذي أيد وجوب أن يكون المهبل عميقاً لكي يُقذَف فيه السائل الذكري من العضو.

ولغة علم التشريح نفسها، غنية بالمعاني التي تضيّع الشدة الوصفية. فهناك الشفاه (من الصعب إجراء توافق أكثر بين الفموي والتناسلي)، والحوريات (من اليونانية «nymphê»)، العروس الفتية، الخطيبة في الميثولوجيا، الحوريات هن النساء الشابات اللواتي يسكن الغابات والينابيع والكهوف)، وأيضاً «المهبل»، باللاتينية «vagina» أي الغمد. لعل التنقل من لغة إلى أخرى يسوقنا إلى

الألمانية، فكلمة Kitzler تعني (البظر) مشتقة من (Kitzel الدغدغة والحكاك)[1] وبالسنسكريتية، البظر yoni - longa يُترجم بالقضيب من الفَرَج. وقد نتمكن أيضاً أن نقوم بجرد للتحليلات الإسطورية الميثولوجية، حيث إن هنود «توباس دي غران شاكو» يقولون عن البظر إنه السن الأخير (لمهبل ذي أسنان، كتخيل وهمي أنثوي أيضاً)، بعد أن جعل الإنسان من نفسه سيد الأماكن والمواقع[2].

ولكي لا نشكل مجالاً مستقلاً قد نتمكن من خلاله تصور تكوين النزوع الجنسي (ذكرياً كان أم أنثوياً)، لا نعتبر علم التشريح برهان ذو أهمية. فتشريحية البعض غالباً ما لها صلة المثالية النفسية (بل اللغوية) بالبعض الآخر، فهناك طريقتان للخضوع لنفس العقيدة الدينية لفصل الروح عن الجسد. واكتشاف الطفلة الشغوف والمقلق، بصورة متناوبة، لتشريح جسدها، يصبح ممكناً بنموها النفسي، ويمدها بالرجوع إلى هذا النمو بقسط من التصورات. ويشير «آ. غرين» بحق، أن رمزية الجهاز التناسلي الأنثوي (والذكري)، تستند، بصورة مباشرة، إلى النموذج التشريحي التحليلي[3]. فالباب والغرفة والمغارة والهاوية والكنيسة والمرج أو المياه العميقة..إلخ كلها أمكنة تمثل المهبل في أحلامنا.

2 ـ حدود الدعم والالتباس الشرجي التناسلي: يصف فرويد

---

(1) Cf. M. GribinsKi,Préface à Freud, Trois essais, op. cit, P. 10.

(2) Cf. A. Métraux cité par M. Erlich, La femme blessé. Essais sur les mutilations sexuelles féminines,L'Harmattan,1986, P. 235.

(3) Le complexe de castration,op. cit. P. 114.

النزوع الجنسي الطفولي وكأنه ينمو ويتطور على دعم الوظائف الحياتية للجسد. ويترافق هذا النزوع، في بادىء الأمر، بالحاجة، وبالإشباع الجنسي الذي يحوز، مبكراً جداً، على استقلالية، ويجري البحث عنه آنئذ من أجل ذاته مثل: المصمصة، أو «المص الشهواني»، أو لعب الطفل باحتجاز برازه، وهذا يعطي أمثلة كلاسيكية للبحث عن الاشباع من أجل الاشباع، متجرداً من أي غاية في حفظ النوع[1]. وعلى نفس النمط، تشكل الوظيفة البولية للقضيب أساساً جلياً من أجل التطور اللاحق للاستمناء.

فيما الأمور تتعقد مع الجهاز التناسلي الأنثوي، حيث المهبل ليس له إلا وظيفة حفظ النوع خلال مرحلة الطفولة، وحتى البظر لا أكثر من ذلك، طالما أنه لا يساهم في أي وظيفة حياتية، لا في مرحلة الطفولة ولا في سن الرشد. وفي بقائنا على أرضية التكوين الداخلي للنزوع الجنسي، وانطلاقاً من وظيفة العضوية، يمكننا أن نتذكر مع فرويد أن «الهياج الجنسي يظهر كمؤثر ثانوي في عدد كبير جداً من الأطوار الداخلية، مهما كانت حدّة هذه الأطوار قليلة، لتجتاز بعض الحدود الكمية»[2] ويشير في هذا الموضوع إلى الدور الذي تلعبه الاهتزازات الميكانيكية الإيقاعية المفروضة على الجسد، منذ الهدهدة وحتى السفر على الخطوط الحديدية. فذكريات الأرجوحة والفروسية وركبتا الأب («بالخطوة وبالعجلة وبالعدو...») أو التشابك على منكبيه، لا بل جلسة الحلاقة، تشكل في كثير من

---

(1) Trois essais,op. cit. P. 102 sq.

(2) Ibid., P. 138.

الأحيان في التحليل للمرأة طريقة لاستعادة واستحضار الأحاسيس التناسلية الطفولية.

ومع ذلك، من المثير، بصورة خاصة، ملاحظة أنه حينما يبحث فرويد في تحديد مصدر الهياجات الأولى التناسلية عند الفتاة، فإنه يرجع إلى مصدر خارجي تهيجي، كرعاية الأم، وبصورة رئيسية، أثناء الحمام وتغيير الحفاض. فالتهيج التناسلي الأنثوي يولد الإثارة، إثارة لاشعورية في حد ذاتها.

قبل المضي قدماً، وقبل ميدان الإثارة، لنَعُد إلى التدعيم. فأن تُمكن إثارة البظر بشكل مباشر بحركات الرعاية، ذلك أمر سهل التصور. يبقى المهبل. فبين الأفعال التي تؤدي إلى أقصى ما يمكن للاعتقاد بالتهيجية المهبلية الطفولية، هناك تجربتان نكوصيتان للمرأة الراشدة (نكوصيتان أي تحملان إذاً علامة اللاشعور وما وراءه من كبت للنزوع الجنسي الطفولي): فالذروة (الأورجازم) مترافقة بنشاط حُلُمي. إنها ذروة النساء الذهانيات. وتقول إحدى المريضات إنها في «أعماقها» تحس بالذروة التي تطلق حلمها. فالتفجرات التناسلية النعوظية (المتعلقة بالذروة)، كما يذكر «فيلّيس غريناكر»، التي يشتكي منها بعض المصابين بالفصام، يبدو أنها تقع في أغلب الأحيان في المهبل، حتى لدى النساء اللواتي لديهن برودة جنسية مهبلية في حياتهن ما قبل الذهانية[1]. إنما عند تصديق فرضية التهيج المهبلي المبكر، كيف ندرك تكوينه، هنا لا يمكننا أن نتذرع لا بحركات

(1) Traumatisme, croissance et personnalité, PUF, 1971, P. 254.

الراشد (ما عدا الانحراف)، ولا بدعم الوظيفة الحياتية؟

تورد «م.كلين» إجابة على هذا التساؤل إلى حدٍ ما نفسية تماماً، في وصف هجرة الهوى التخيلي للإيلاج من أعلى نحو الأسفل، ومن الفم نحو المهبل. مسلك آخر يفتتحه «لو أندرياس سالوميه»، حيث يتشابك أكثر الجسد والتصورات في امتدادٍ لبعض الرؤى الفرويدية. مشيراً إلى عددٍ من المماثلات للأطوار الشرجية التناسلية (بصيغة الدفع، وصفتها الداخلية، وتمثيلها الفوهوي)، ولـ «أندرياس سالوميه» كلمة غدت مشهورة: «يبقى الجهاز التناسلي مجاوراً لبؤرة، وعند المرأة لا يؤخذ مطلقاً إلا بالحجز»[1]. وإنه من اللافت أن تكون هذه الكلمة مذكورة بقدر ما تكون مخادعة، والتي بدأها فرويد نفسه. وهذا الأخير اعترف مبكراً جداً بوجود نظرية بالوعية تبحث الطفلة بواسطتها عن إدراك مدخل ومخرج الطفل الوليد (والقضيب) على غرار البراز.لكن البالوعة التي تحدث عنها «لو أندرياس سالوميه» ليست إجابة نظرية بسيطة لتساؤل طفولي، إنما منطقة تهيج حقيقية. وكما تثبت أن ارتدادات العشقية التناسلية نحو العشقية الشرجية تتمتع بدعم جسدي قوي. حاجز فقط يفصل الشرج عن المهبل (وهو حساس بصورة خاصة طالما أنه مغطى بمخاط من جهة ومن أخرى)، مسهّلاً التباسات الأحاسيس التي يشهد بها النزوع الجنسي للمرأة الراشدة وليس فقط لنزوع الطفلة. كانت «فرانسواز دولتو» قد أذهلت الجمعية الموقرة لمؤتمر (كونغرس) أمستردام حول النزوع الجنسي

(1) Anal et sexuel (1916),in L' amour du narcissisme, Gallimard,1980, P.107.

الأنثوي عام (1960)، بذكرها أن النساء يتمتعن أيضاً عندما يكون الاختراق شرجياً. مما جعل «لاكان» يوجه لها عبارة «أنت وقحة». ولا يسعنا إلا القول إن هذا القدر من الدلالة على المعنى تستحضر المجاورة والتباساتها المزدوجة. وفي رسائله إلى فرويد، كان «أبراهام» يصيغ كذلك الفرضية التالية: «أن تتولد في المهبل أحاسيس، تنتقل إلى المنطقة الشرجية، كانقباضاته المسببة للمتعة، فهي، بطريقة ما، على صلة بانقباضات العضلة الشرجية». ودون إرساء نموذج التدعيم، فالفرضية التي ترتسم هكذا هي نظرية المعايشة التهيجية المتعلقة بمساهمة الأطوار الشرجية في الدافع الجنسي، فالمعايشة التهيجية هي ما يبثه الشرج نحو المهبل، على خلفية الالتباس البالوعي.

يعتقد «جونز» أن طور التمايز الشرجي والتناسلي عند المرأة طويلاً، وتقريباً لا يُنجَز أبداً، وفي كافة الأحوال هو غامض. هذا الالتباس هو دعامة لتناقضات ومصائر مختلفة، وانطلاقاً من الشبقية التناسلية للفتحة الشرجية (ناحية أن: «النساء تتمتع من هنا أيضاً»)، إلى الكبت التناسلي المختلط اختلاطاً خطيراً جداً مع الشرجي (عندما يكون النزوع الجنسي «قذراً» كبالوعة تحديداً، ويكون من المناسب أن تظل الفتاة الصغيرة «نظيفة جداً») مروراً بالنكوص الماسوشي (الذي هواه التخيلي «الطفل المضروب» يشير إلى المسلك والذي يعني الفاسقة قد تتشكل: «من هنا تتمتع النساء ومن هنا فقط»).

المقاربة الجسدية بين الشرجي والتناسلي لا يجب أن تخفي حكم أنه لا يمكن التحدث عن منطقة تهيجية ومعايشة تهيجية، إلا

ضمن المقياس حيث يترسخ لفظ الجسدي ـ الروحي. ولا يُحمل الكبت على الحاجز الشرجي التناسلي، فذلك ليس له أي معنى، إنه نتيجة الصراع النفسي بين المرغوب والمحرّم، بين المطلب الشبقي وطاقات تقبل الأنا، ويتعلق بالتصورات المصاحبة للتهيج. وبعد فرويد، كان «أبراهام» قد حاول تحديد نواة الهوى التخيلي البالوعي بقوله: «عند الفتيات، يساعد طرد المادة البرازية الهوى التخيلي في استحواذ القضيب، سواء بتهيئته بنفسها (كرغبة ذكرية بصلتها مع عقدة الإخصاء) أو بتلقيه هدية (غاية ورغبة بصلتها مع الوضعية الأنثوية)، إنه إذاً الأب المستحوذ الذي يبدو كمفرِّق»(1)

هل شريك الفتاة فيما يتعلق بالهوى التخيلي البالوعي هو الأب دوماً (أو قضيبه)؟ هنا أيضاً يبرز الالتباس. ولأن التجربة الشرجية تلعب دوراً حاسماً في أطوار التفردية (وبالنتيجة في تكوين الأنا)، وفي تشكيل الأداة وفي التناقض الوجداني في مكانه، فإنها تجد نفسها أيضاً على مفترق طرق لعلاقات الطفلة مع أمها ومع أبيها. ترجع «ر. ماك برونزويك» للأم، (تابعة لفرويد)، عندما تشير لناحية إدخالات العضلة الشرجية (من حقنة شرجية في الماضي إلى تحميلة في الحاضر) في تشكيل حالات من القلق الأنثوي (فيما إدخالات الفتى، على أرضية أنثوية، هي كإدخالات الفتاة). أما هياج الطفلة، الذي غالباً ما يمكن مراقبته في ميدانه، كما تذكر، يترجم غضبها، وبعد حين قلقها أمام الاعتداء، إنما في ذات الوقت يشكل «معادلاً

(1) Manifestations du complexe de castration chez la femme, op. cit., P. 105.

شرجياً للعضوية التناسلية). وبعبارة أخرى، يتم الحفاظ على السجل البالوعي بأقرب ما يمكن من الاشباع، وانتهاك الداخل، والعجز أمام الاعتداء والقلق تجاه ما ينهك القدرات الرمزية للأنا. ويفترض توجه المرأة نحو تناسلية مشبعة، تهيئة لهذا الالتباس، أي عدم تضامن - وربما جزئي دوماً - الشرجي والتناسلي.

الأم الشرجية الأمجية[1] تلك التي تهيمن على الوظائف الجسدية، الحارسة للعضلات الشرجية والمالكة لأحشاء الجسد قبل مراقبة «إدخالات وإخراجات» الفتاةالمراهقة، هذه الأمجية المخيفة هي مرتكز هاتين المقالتين، إحداهما لـ «جانين شاسغيت - سميرغل» والأخرى لـ «ماريا توروك»[2]. هاتان الكاتبتان تصرّان، بصورة خاصة، أكثر على أطوار الكمال والمثالية التي تنتج عن تأثير ما. وخلف الأداة أو القضيبي الذي أُسبِغت عليه الصفة المثالية - التي تجعل الحياة الجنسية الواقعية صعبة جداً ومحبِطة جداً - هناك نقيضه: الشيئ القذر («هذا الشيئ الذي يتهدّل» كما تقول إحدى المريضات) والأداة الفانية، الجدير بالتدمير أكثر من الحب.ويمكن لإسباغ الصفة المثالية أن يُفهم تماماً كطريقة إبقاء الأم الشرجية بعيداً، وكذلك كطريقة مواربة عن منحها الانتصار، والرجحان من حكم لآخر ارتباطاً مع الحياة الفردية.

(1) صورة ذهنية متميزة بالتقديس والإعجاب بشخص ما. (المترجم).

(2) J. Chasseguet - Smirgel, La culpabilité féminine, M. Torok, L' envie du pénis,in La sexualité féminine (J. Chasseguet - Smirgel, C. Luquet Parat,B. Grunberger, J. McD ougall, M. Torok, C. David), PB Payot, 1964.

كان فرويد نفسه قد استحضر عدة أقدار أنثوية «موحية»، تفسح المجال لمنظومة جنسية سادية شرجية مهيمنة. فـ «عصاب ربة المنزل» في بادىء الأمر، هو العصاب الذي به تطارد القذارة بلا هوادة، دون التغاضي عن أدنى بقعة. فالتجارة المزدهرة لمواد الغسيل والمنتجات الأخرى للمحافظة على النظافة ترتكز على تطلّب مِلِحّ لاشعوري: «le vieux dragon» بعد ذلك في خريف العمر، عندما تستعيد العشقية السادية الشرجية حقوقها بعد هجران الوظيفة التناسلية، «الفتاة الشابة الظريفة، والزوجة العاشقة، والأم الحنون» تذوي عندئذ أمام المرآة الشرسة الرهيبة: «المشاكسة والمنكِّدة والمماحكة».. إلخ.(1) ينبغي أخيراً تحديد أن الشرجية ليست خصوصية أنثوية، وأنها تشكل أيضاً مزاج الرجال، حول النموذج الهاجسي لشخصية «بالزاك» «دي غرانديت» وغيرها كثيرات.

3 ـ **إغواء الاختراق**: «إن تيقظ المهبل لكامل وظيفته الجنسية، يرتبط ارتباطاً كلياً بإيجابية ونشاط الرجل». ويمضي قول «هيلين دوتش» هذا قدماً إلى أقصى الفكرة الفرويدية في اكتشاف متأخر للمهبل. وبناء على قولها، فإنه ليست مرحلة البلوغ التي قد توجب الانتظار، إنما الجماع الأول! وعلى خلفية ما لسذاجة هذا القول من اعتراف بالكبت، يمكننا مع ذلك أن نتساءل على مدى الحقيقة التي يتضمنها. ففي نص («الطفل المضروب») يذهب فرويد بعيداً في تصور النزوع الجنسي الطفولي الأنثوي على الأخص، وهنا حيث يستعيد

(1) La disposition à la névrose obsessionnelle (1913) in Névrose,psy-chose, perversion,op. cit. P. 195.

ذكرى التطلع الشبقي للفتاة الصغيرة، المصاحب لشعور مسبق لغايات جنسية محددة وتهيج للأعضاء التناسلية، يُدخل عنصراً ذا أهمية بالغة. الأب في الهوى التخيلي، هو ذلك الذي يضرب، وبصورة لاشعورية أكثر، الذي يخترق،وهو أمر سابق للأب الغاوي، ذلك الذي«يفعل كل شيئ لكسب حب» ابنته الصغيرة. ذلك الأب ليس الفاسق الدنيء الذي كان فرويد يخرجه خلف العصاب الهستيري. إنما الأب (الأوديبي) للفتاة الصغيرة، وإغواؤه هو إغواء محبة يحملها للطفلة. إن الأهواء التخيلية اللاشعورية للأب ـ الأهواء التناسلية لراشد جنسي ـ لا يمكنها ألا تترك آثارها في روح وجسد الطفلة. وهي تساهم في إيجاد المهبل للطفلة، وتصوره وتهيجه، أمن الواجب أن نسلم أن هذا الإدراج لا يمكن أن يكون إلا غامضاً. كنا نستحضر في السابق الدور الذي تلعبه الاهتزازات الإيقاعية التي يفرضها الجسد في تكوين التهيجية المهبلية. وينبغي أن نضيف ـ وأن نجعله مسبقاً ـ الدور اللاشعوري لذلك الذي يهب الإيقاع، الذي يحب كثيراً أن ينطط فتاته الصغيرة على ركبتيه أو يقذفها في الهواء قبل أن يمسكها ثانية. وفي أحلام المرأة تتواجد كثيراً، فكرة أن فتح الجسد، لا ينشأ إلا بالاختراق القاسي للقضيب، حلم كطعنة خنجر أو لدغة أفعى،على سبيل المثال. وليكون خيالياً، ثمة تصوراً هو بلا شك أقرب من حقيقة الجنسية الأنثوية من وصف تشريحي.

اللوحة التي صممها فرويد ـ وفي قسم منها دون علم منه ـ تشبه شخصيات أوديبية مشكّلة، الأب والفتاة الصغيرة. ويسمح إسهام «م.كلين»، في آن واحد، في إزاحة السيناريو إلى أعلى وإجراء

التعديلات عليه: القضيب الثدي، والفم الشرج المهبل، هي هنا ـ في اللاشعور ـ قبل الثنائي النهائي.

ثانياً ـ السلبية والماسوشية

يقول «ياهڤيه إيلوهيم» (الرب الإله) للمرأة: «تكثيراً أكثّر أتعاب حملك. بالوجع تلدين أولاداً. وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك» (الكتاب المقدس ـ العهد القديم، سفر التكوين، الإصحاح الثالث، 16) هوذا القدر المعهود لتلك التي انفتحت عيناها، كاشفة عن الجسد الجنسي العاري.

كم هو جدير بالأهمية موضوع العلاقات بين الماسوشية والأنثوية، التي يعيقها إلى حد كبير تراكم آلاف الأساطير والمعتقدات والأحكام المسبقة. تجمع الأخلاق والطبيعة«باللذة» تأثيراتهما، وآلام الجسد تحدد ثمن السقوط، منذ الحيض وحتى الوضع مروراً بفض البكارة والحمل، عندما لا نضيف عليها شيئاً، في أماكن أخرى، كالتعقيم والاستئصال...«ليست المرأة مريضة فقط كما يقول «ميشليه»، بل جريحة. إنها تقاسي بلا انقطاع من الجرح الخالد للحب». ويمكننا أن ندرك أن «ماري بونابرت» شعرت بنفسها مرغمة على التحديد، وبسذاجة لذيذة، أن: «الجماع المهبلي الطبيعي لا يؤلم المرأة، تماماً على عكس ما يُقال».

إن تعقيد المقاربة التحليلية النفسية لارتباطات الأنوثة والماسوشية لا تتمسك فقط بالإسراف بهذه التصورات الجامعة وبصعوبة التخلص منها، بل إن لها مصدراً آخراً: إنه الإسهام الذكري

بالماسوشية الأنثوية. «وهو يسود عليك» كما يقول سفر التكوين. ألم أنثوي وهيمنة رجولية تشكل ازدواجية قديمة، ترجع لقلق إخصاء الرجال، وإلى مواجهته على طريقتهم... وبفرض «الضعف» على الجنس الآخر، الذي يمثل له وحده الجرح. ومع ذلك لا ينبغي على هذه التحققات أن تحول المسألة إلى مَحرَم، فهكذا كان الحال أحياناً، يُدان سلفاً أي اعتبار حول العلاقات اللاشعورية للأنوثة بالماسوشية. وإذا أُثير الموضوع ثانية، فهذا يمرر بالتحليل سابقاً لمؤشر نفسي جنسي أساسي وصعب الإحاطة به: إنه السلبية.

1 ـ السلبيات: في عالم يميّز بين «الجمهور الإيجابي» والآخرين، ليس من المستحسن الحفاظ على صلة مميزة مع السلبية. يُضاف إلى هذا العائق الإيديولوجي صعوبة متوارثة من النظرية المركزية القضيبية الفرويدية، إنه في إدماج السلبية بالفتور. إنها لفتاة صغيرة محبطة، منهزمة تلك التي تسلم زمام أمرها للأب. فسلبيتها تجاه الأداة الجديدة، ليست إلا طريقة لقبول الإخصاء، إنها سلبية لعجزها عن أن تكون إيجابية، ونتاج نقص في حيازة ذلك. وتشير سلبية الفتاة الصغيرة لوضعية جنسية، أقل من أن تكون هجراً للنشاط الجنسي أو كبته: «إن ضمور القضيب (هذا البظر الذي لا يشاء أن يكبر) يسهّل تحول الميول الجنسية تحولاً مباشراً إلى ميول وادعة مكبوتة الهدف»(1) سلبية مخصية مكبوتة... قياساً بالعضو الانتصابي

(1) La disparition du complexe d'Œdipe., OCF P, vol. XVII, op. cit. P. 33.

المتفوق، تتساوى هذه العبارات. أي حياة جنسية تُنتظر لمثل هذا النهج، إن لم تكن هي البرودة؟

وعلى هامش المحور القضيبي، هناك صيغ لفرويد تفتح الباب على سلبية أخرى، دافعية هذه المرة. فمن شهوة القضيب إلى رغبة الطفل العضو القضيبي، ذلك هو الدرب المفترض الذي يسوق الفتاة من الأب. ولا تفلت من فرويد نقطة ضعف بنائها، إنها في الانتقال من شهوة القضيب الخارجي إلى استثمار الجسد الداخلي العصي على التصور. من الضروري إذاً إدخال طور إضافي، إنما يبقى نظرياً معزولاً: «يتم التوجه نحو الأب بصورة رئيسية بمساعدة مؤشرات دافعية سلبية»[1].

إن عبارة المفارقة «فورة السلبية»، تلخص بحد ذاتها الصعوبة المنطقية في البداية في التفكير بالسلبية. فعبارة «سلبي» تفترض تفوّق «الإيجابي» لأحد ما، والأولية للآخر. هذه الصعوبة يسمح التخيل بإبرازها. فالهوى التخيلي الأنثوي في الاختراق من قبل الرجل يشهد بتنوع لا نهاية له، منذ التخيل البليغ في أن أحداً يتعقبها في شارع مظلم، أو أثناء صعودها الدرج، إلى السيناريو العنيف في أن تُغتصب من مجرم يدخل البيت بعد خلع الباب، جميع الأهواء التخيلية التي يمكن أن تكون مجهولة، وتكرار الكوابيس أو تحوّلها إلى حالات رهاب، تلقى الاهتمام المباشر لقيمتها التهيجية، ومصاحبتها للاستمناء أو الفعل الجنسي. سلبية الخاضعة لمشهد الهوى التخيلي «يتعارض»

(1) La féminité, op. cit, P. 171.

مع الإيجابية التخيلية التي ينشرها الشخص نفسه في ابتكار التخيل.

ومن الهوى التخيلي إلى التحقيق الفعلي للفعل الجنسي، الانتقال لا يتم أبداً بنقل بسيط بورق شفاف، سوى في السجل الانحرافي، إنما هنا أيضاً، سينبغي على المرأة أن تنشر كثيراً من الإيجابية من أجل أن يكون الهدف السلبي (في الاستمتاع بالاختراق) مشبِعاً، وبصورة احتمالية من أجل اصطحاب الشريك إلى أقرب ما يمكن من الدور الذي أملاه التخيل الوهمي. فكرة السلبية الدافعية هي إذاً فكرة السلبية المرجوة، والمبحوث عنها، والمختلفة تماماً عن خضوع وقبول بسيطين، إنها من ناحية أخرى مرفوضة أكثر من مقبولة في غالب الأحيان.

فأن نعيد فورة السلبية أو الأهواء التخيلية إلى الهدف السلبي، أي أننا نحدد، على أرضية الحياة النفسية الجنسية، الصلة بين الأنوثة والسلبية، وليس على السجل الوحيد للتشريح، بالمرجعية إلى التكوين التكاملي للقضيب والمهبل. فالتشريح التناسلي تحديداً لا يكون في البداية. وإذا كانت له قيمة تأسيسية، فقد لا ندرك أن الغاية الجنسية التي تُطرح على المرأة (بأن تُخترق) يمكنها أن تُرفض(في اختيار أداة المثلية الجنسية أو أداة العذرية) أو التحييدية (في البرودة الجنسية). فالاختراق الفعلي للمهبل من قبل القضيب هو حدث مؤخر من الناحية الزمنية، ويسبقه بزمن طويل هواه التخيلي والنزوع الجنسي النفسي الذي يهيمن على الصراع. وبالفعل فإن السلبية التناسلية هي المكمِّل لسلبية قديمة بصورة مختلفة، والتي لا تقوم إلا بالاستئناف، بالمتعة أو بالصدمة، وفقاً للأقدار الفردية.

«التجارب الجنسية الأولى أو المشوبة بالجنس والتي تحصل

للطفل مع أمه تكون عادة ذات طبيعة سلبية»[1] وليس أمر عديم الأهمية في هذا النص المكرس للنزوع الجنسي الأنثوي أن تصدر هذه الجملة عن فرويد (عادة ذات طبيعة سلبية). بعد كلمة عادة، هناك حالة عجز الرضيع الذي يجد نفسه في مرحلة ما قبل نضوجه متعلقاً بالراشد من أجل بقائه. هذه السلبية الأولى، كما أشار «ج. لا بلانش»[2]، تعطي سلفاً إذاً، الأولية للغير(للراشد، وعموماً للأم)، ولأن الأمر يتعلق بتجربة جنسية، فأولية اللاشعور للراشد.

إن مرحلة ما قبل نضوج الرضيع ليست مجرد مرحلة جسدية، بل هي نفسية أيضاً. فالإشباع الذي يترافق مع الرعاية، لأنه شبقي مرتبط باللذة وليس فقط بحكم الحاجة، يفوق قدرات الطفل على التماهي، وذلك يدوم طويلاً. إنه مفرط دوماً. كل فرد يعرف المشهد الذي كان به الشاهد أو الفاعل، فالطفل يتوجه نحو الراشد الذي يهيجه وكأنه يقول «المزيد، المزيد...» وهو لا يعرف الكلل، عدا الضرب على الإليتين والتباساتها، إنها التباسات «الطفل المضروب». و«تعقِب» سلبية الرضيع أمام الراشد، داخلية هذه المرة، سلبية الأنا أمام «المزيد» من المطلب الدافعي. إحدى الصيغ الأساسية لاندماج هذه التهيجية الطافحة مع الروح الطفولية، هي في تحويل هذه التجارب السلبية إلى إيجابية، باللعب على سبيل الذكر، انظروا المثل الفرويدي الشهير للطفل على المِكَب بـ (la bobine)[3]. في هذا

(1) Sur la sexualité féminine ,op. cit, P. 149.

(2) Cf. Nouveaux fondements pour la psychanalyse PUF, 1987.

(3) Au- delà du principe de plaisir (1920), in Essais de psychanalyse, PB. Payot.

التحول، تلعب أطوار تماهي الطفل بالراشد دوراً حاسماً.

وتشير الحياة الجنسية إلى أن الغايات الإيجابية والسلبية تتبادل طوعاً بين الواحدة والأخرى. هذه التبادلية لا يجب مع ذلك أن تتقنع بالبعد البدائي للسلبية بالنسبة للاشعور. كان الرومان، الرقباء النافذو البصيرة، يستنكرون السلبية في الحب كما يستنكرون الخلاعة نفسها. ووفقاً لفرضيتنا الخاصة، تخلف الغاية التناسلية الأنثوية في أن تُخترق (أو ترجمتها الملطفة «الإيجابية» أي التلقي)، صيغاً موغلة في القِدم للإشباع الشهوي.ونضيف أنه بين المرأة المخترقة والرضيع «الساعي» لحب الراشد، ليست العلاقة تمثيلية ببساطة، إنه بشكل اصطفائي بفتحات الجسد (الفموية والشرجية والبولية والتناسلية) هو الحب الذي يُخترق بالرعاية.

فبين الرضيع المتخذ «على حدة بأكمله كبديل عن الأداة الجنسية» والمتمتع،بصورة سلبية، والاشباع الأنثوي اللاحق (التمتع بالذي يخترق الداخل)، يكون التراكب في آن واحد بنائي بذاتية الوضعية، وتجريبي في التسلسل الفوهي: الفم، الشرج، المهبل. هذه القرابة في أنماط اللذة هي أيضاً قرابة صادمة، حيث أن التجربة الجنسية للرضيع تفيض بغزارة،فيما هو ضمن إطار الاستقبال، إنها تجهد الجسد والروح. وتُشرك الوضعية التناسلية النثوية هي أيضاً ما بين الاستمتاع والاقتلاع. وأن تتأرجح الحياة الجنسية للمرأة من جانب لآخر ـ أو تحتفظ بالترابط بين الاثنين ـ على الأقل في الهوى التخيلي، فهو أمر على صلة بالفردية، إنما يمكن أن ندرك أن عَرَضاً تقريباً لا يمكن تلافيه للبرودة الجنسية يسبق الوصول إلى التناسلية.

ووفقاً لصيغة لفرويد تبقى قابلة للزوال، يشكل العنصر النثوي «مكبوتاً بامتياز»، وبالفعل، لأن الفتى مدعو لأن يتمتع بموقف تناسلي إيجابي، على الأقل بطريقة أرجحية، فتطوره النفسي الجنسي يجعله ينسجم مع الحركة المتفوقة التهيئية للسلبية البدائية. ومن ناحية أخرى، لا تتطلب الوضعية الأنثوية نظراً للعلاقة التي تحتفظ بها مع السلبية الأصلية ومبالغاتها، إلا الوقوع تحت وطأة الكبت. وعندما يتم بلوغ هدف «التمتع بالافتراق»...، ما يكون بعيداً عن أن يكون الحالة دوماً، هو في معظم الأحيان على درب تم السير به بصعوبة. إنما مهما يكن الأمر، فسيكون الرجل، بل المرأة نفسها، مستعداً تماماً للمشاركة بوجهة نظر «تيريزياس».

2 ـ الأنوثة والماسوشية: ليس للماسوشية سمعة طيبة أكثر من السلبية. فللمحلل النفسي أسباب وجيهة لئلا يترنم باللازمة نفسها، حتى لو جوبه، بصورة منتظمة، بطريقة تتعارض بها الماسوشية مع دينامية العلاج. فقدرة الإنسان على استجرار الاشباع بالألم هي بلا شك إحدى ثرواته الأساسية، الموضوعة للمساهمة على مدى المحن الحياتية، من العمر الأول وحتى الثالث. والحالات الماسوشية المنحرفة نفسها تشهد على ذلك رغم صلاحيتها الهدّامة. وقد أشارت تحقيقات «ستولر» حول هذا الموضوع، أنه في أصل السيناريو الماسوشي الراشد، والمريب أحياناً، نجد، بصورة مألوفة، في الطفولة تجربة مؤلمة جداً والتي ما أمكن أن تُحتمل إلا بكونها شبقية[1]. ودون شك، ينجم عن ذلك تثبيتاً منقولاً، وفي بعض

(1) X.S.M., Nouvelle Revue de psychanalyse, n° 43, Gallimard, 1991.

الحالات، خطِراً على الحياة نفسها، إنما يكون الأمر في نسيان الدور المعاكس، والحياتي من الناحية النفسية، والذي كان في البداية دوره.

يدعو اعتبار آخر إلى مواجهة الماسوشية من زاوية التخلص من الحكم المسبق، حيث أن العنصر الماسوشي يتمسك بأساسيات الحياة النفسية الجنسية نفسها، وبتكوين اللاشعور، بدلاً من أن يكون التبدل البسيط لبعض الأقدار المرضية. والطفل الذي يصرخ «المزيد المزيد»، عمَّ يبحث؟ هل يبحث عن اغتنام اللذة أم تسكين الألم؟ الاثنان يمتزجان، بصورة يتعذر الخروج منها، حتى قبل الضرب الحاسم على الإليتين، والذي على الأقل عرفناه منذ كتاب «اعترافات» لـ «جان جاك روسو» والحياة النفسية الجنسية تخلطهما.

وقد أطال «ج. لابلانش» بالفكرة الفرويدية عن ماسوشية أصلية، انطلاقاً من نظرية الإغواء - أي على نقيض الترجمة بعبارات فيزيولوجية. تفترض الماسوشية اقتران الألم الناشئ عن اقتلاع، للحدود الجسدية ولحدود الأنا - مع التهيج الجنسي. ولأنها تزخر بالضرورة بقدرات إدماج لطفل صغير جداً، فالتدخل الإغوائي للراشد - لا يتعلق الأمر مرة أخرى إلا بالحب الممتزج بالرعاية - يتضمن إلزامية «عنصر الاقتلاع المتصف بالألم»[1]. هذا الزمن الصفر للماسوشية تتبعه فترة ليست أصلية مطلقاً، إنما تقع على نفس مشهد نفسي وحيد، إنه مشهد الطفل، هذه الفترة هي فترة الكبت، فترة

(1) Masochisme et théorie de la séduction généralisée, in La révolution copernicienne, Aubier, 1992.

الوضع بمعزل عن التصورات وعن التهيج المشترك والذي تعجز النفسية الجسدية للطفل ضبطه. وإزاء هذا الجسد الداخلي الحقيقي الغريب، والذي تَصَوّره لاشعوري، يكون «الأنا سلبي، وبخطر دائم في أن يرضخ للاقتلاع». مبدأ التصور نفسه غير المقبول والذي نُصِرُّ عليه، يشمل عنصر الألم، فالعدوان الداخلي على حدود الأنا، وهجوم الدافع، يخلفه هكذا، التدخل والتطفل الجنسي للراشد.

وهكذا نرى الماسوشية، متفق على أنها تتمسك بالتباين التكويني للاشعور نفسه، وبالتهديد الصارم المؤلم الذي يثقل على النفس من عودة المكبوت. ولا زلنا بعيدين عن منظومة شبقية ماسوشية أو، ببساطة أكثر، عن الطريقة التي بها يختلط العنصر الماسوشي بالحياة النفسية الجنسية. وبين هذه المستويات المختلفة، من الممكن أن تشكل الأنوثة حلقة حاسمة.

ولا تدع الماسوشية في الحياة الجنسية للنساء نفسها تنسحب مطلقاً إلى الوحدة ما دامت تستمد من مصادر لاشعورية مختلفة، والتنوعات النظرية حول الموضوع تشهد بذلك. ولنأخذ منها تصورات «ك. هورني وم.كلين»، اللتان تعتبران التكوين النفسي للأنوثة متضمناً المركب الماسوشي، ليس كحادث طارىء، إنما كمرتبط بجوهر الطور. فتصور القضيب الأبوي العملاق، وبنفس الوقت خالق للفتحة الأنثوية ومهدد للجسد الداخلي، لا يمكن أن تألف الهوى التخيلي إلا بالرغبة التي توحي بمزج التصور المؤلم بالعنف، وحتى لو «نسيت» «ك.هورني» أسس نظريتها الخاصة عندما كتبت بحثاً حول الماسوشية عند المرأة، لئلا تستذكر مطلقاً تأثير التماهيات الاجتماعية

والثقافية[1]. فتباين الأداة القضيب، وحكم أنه الوريث بعد الثدي لإسقاطات «السيّئ»، يفتح كذلك لدى «م. كلين» الباب على إشكالية الماسوشية، وأن السعي خلف القضيب «السيّئ» هو دليل الحياة الجنسية (في البحث عن شريك سادي)، أو أن المرأة تحمي نفسها من عدائيتها الإخصائية بتبني وضعية خاضعة للرجل[2].

لعل تأملات فرويد حول عقدة الإخصاء الأنثوي، تعطي كذلك مادة تساعدنا على فهم العلاقات بين الماسوشية والأنوثة، إنه مظهر شخصية «لا ليليا» لـ «جورج ساند». فالتماهي مع الأم يَعِد بقدر، حيث لن يكون هناك إلا الخضوع والإنصياع. والقسط من الإشباع الذي تنتزعه المرأة من موقف ما، يظل في معظم الأحيان لاشعورياً بصورة أعمق، وغير قابل للكشف ظاهرياً إلا في مراجعة تكرار علاقات النمط نفسه في الحياة العاطفية الإجتماعية. «يجب أن يحدث ذلك دوماً حدوثاً سيئاً...».

وعندما نأخذ الأمر في الحكم التحليلي النفسي، فإن التصرف الماسوشي يغذي رد الفعل العلاجي السلبي، خاصة وأن لا شيئ يسوي الأمر. فعلى المحلل النفسي أن يكون منتبهاً في ذلك، أكثر من أن يكون الحكم التحليلي النفسي بحد ذاته مراعياً لماسوشية المريض. وكما كتبت «جاكلين

---

(1) Le problème du masochisme chez la femme , in La psychologie de la femme,op. cit.

(2) وبنفس المعنى، تكوين ماسوشية أنثوية انطلاقاً من تغيير اتجاه العدوانية الموجهة نحو القضيب الأبوي «لوكيه بارات» مكانة الحركة الماسوشية في تطور المرأة، المجلة القرنسية للتحليل النفسي، العدد (3) 1959.

كوسينييه»[1]، يفعّل النكوص في التحليل حياة العجز للطفلة حيال الراشد وبنفس الوقت المتع السلبية (والصادمة بصورة كمونية) ذات الصلة، دون التكلم عما يجر إفشاء الباطن الودي لتطفل إنسان غريب عن تصورات عدائية. والتوازن هو دوماً غير مستقر بين مساهمة الماسوشية في الطور التحليلي والموانع التي يمكن أن تعترضه. إنما يتأكد الخلل حينما يعاني الكادر من تعديلات تدور كلها حول الخضوع المتنامي للمريض تحت التحليل. وتتحدث مريضة عن تحليلها السابق وتقول: سبع عشرة سنين طوال، جلسات متوالية من 10 ـ 15 دقيقة، صمت منهك للمحلل، قاعة انتظار المرضى فيها جنباً إلى جنب، «يراقبون بعضهم كالكلاب الخزفية المزخرفة»، (واختلافاً ملزِماً في زمن الجلسات)، علاوة عن سهولة الكشف عن مقاصد المحلل، وتأجيله التحليل بسبب دعوات المحاضرات والندوات. والدهشة أمام هذه الأسباب تأتي طبعاً من هذه الممارسات المثيرة للفضول ـ رغم أنها معروفة تماماً ـ لكن ما يدعو للتساؤل هو: كيف أمكنها تحمل ذلك طوال هذا الوقت؟ فالماسوشية، ومصادرها اللامتناهية، تعطي الجواب، فعندما «يصعب الخروج من ذلك» يجري استبداله بـ: عدم الخروج من التحليل.

وأن الماسوشية لدى المرأة يمكن أن تنبثق عن تماهٍ مع الكائن المخصي، فذلك أمر غير قابل للتحقيق على الإطلاق، عندما يُعزى الألم إلى «ألم كونها امرأة». إنما تعريف تلك الماسوشية الأنثوية هو، من ناحية أخرى، أمر قابل للنقاش، كما هو أمر اضمحلال النزوع الجنسي الأنثوي إلى منطق العضو القضيبي. وليس من قبيل المصادفة إذا فرويد، عندما عالج موضوع الماسوشية الأنثوية عام 1924، لم يعزِ الأمر إلى وسيلة سريرية هي الذكورية. وبعد خمس

(1) Destins de la féminité, PUF, 1987, P. 88 sq.

سنوات من تأليفه لـ «الطفل المضروب» لم تفته حالة النساء الماسوشيات. ويعود الأمر إلى أن تحليل الهوى التخيلي في نص عام 1919 انساق بصورة سيئة بتلاشيه ضمن عبارات الترميز القضيبي ووصف ماسوشية متضامنة مع الوضعية التناسلية الأنثوية: «أن تكون مضروبة» أي «أن تكون في وضعية الجماع».

وفي فصل الخط المستقيم من كتاب «الطفل المضروب»، يمكننا أن نضع بعض الملاحظات، التي لا يمكن فصلها عن التطور السابق حول السلبية. «إنها منظومة تناسلية، تجعل من الماسوشية سمة للأنوثة، وفقاً لما كتبته ج. كوسينييه» يبدو القول لنا دقيقاً، شريطة أن نحدد فيه التعابير في كل مرة. فالماسوشية، هذا التناسق من الألم ومن التهييج الجنسي، يستبق تكوين التناسلية الأنثوية، وبالطبع يشمل معه تكوين تناسلية الفتاة الصغيرة. وتتعلق الماسوشية الأصلية، كما رأينا ذلك، بالطابع الحتمي الصادم للفورة الجنسية في التكوين النفسي الجسدي للطفلة. ويبتدىء الألم مع اشتداد اللذة ـ لندع الحالات المرضية أو الطارئة حيث تُدخلها من أجل ذاتها ـ ، ومع عجز الطفلة الرضيعة عن «تمثل واحتواء «فرط التهييج والمغالاة في الهوى التخيلي». حين يستعيد الاختراق الجنسي ذاته طوعاً من المسالك الفوهية (بالنسبة للجنسين)، يجد إلى حد ما تأكيداً فيما بعد الضربة في التمثل التناسلي الأنثوي (أو في المماثلة الشرجية لدى الرجل). فاختراق الجسد عند المرأة يخلف مقدمات الطفولة، مستحدثة فيها، وفقاً لتواريخ فردية، المتعة أو الصدمة، والعمومية الكبيرة لعَرَض البرودة الجنسية تتخذ من هنا وصدرها. وكلتا

الماسوشية والأنوثة تتحولان نحو الداخل، في تعقيد شبه بنيوي. وقد استحضرت هذه العلاقة الحميمة «جاكلين شيفر» بعبارات حيوية بدرجة خاصة، والتي تشير كذلك إلى مقاربة بين تجارب المتعة الأنثوية والقلق، وذلك بقولها: «كل ما هو لا يحتمل بالنسبة للأنا من سلبية، وفقدان الضبط، وتلاشي الحدود، وتدخل الاختراق، وإساءة استخدام القدرة، وزوال الحيازة (وكل التصورات التخيلية الطارئة التي تلتمس قضيب الرجل) هي تحديداً ما يساهم بالمتعة الجنسية (...) والهزيمة، بكل معنى الكلمة، هي شرط المتعة الأنثوية»[1] وتضيف، شريطة أن قلق إخصاء الرجل يسمح له أن يصحب شريكته إلى هنا وأن يغامر بنفسه معها، بالتماهي.

بين «الجسد الغريب الداخلي» في التصور اللاشعوري، والاقتحامات التي يحملها ضد الحدود الداخلية للأنا بغية إيجاد مخرج، والقضيب «داخل» المهبل، ليست العلاقة تصورية ببساطة، إنها أيضاً تواصل، وهناك طريقة «م.كلين» في لفظ اللاشعور، بـ الداخل والأنثى، حيث كانت إحدى المريضات وهي تستحضر ممارساتها المضادة للحمل تشرك رفضها لأداة منع الحمل (التي تفترض«إدخال جسم غريب») مع الانطباع الذي كان يمنحها إياه الحاجز الذي تستخدمه «في ألا تُخترق فعلياً» عند العلاقة الجنسية.

لعدم الموافقة على «الماسوشية الأنثوية»، ترجمة فرويد، هل

(1) Horror feminae, Bulletin de la Société psychanalytique de Paris, n°28, 1993, P. 93.

نتوقع من هذا النوع الآخر الذي يقترح «الماسوشية الموضعية التهيجية»، تنويراً غنياً لتحليل الأنوثة؟ يقترب هذا المبدأ من تصور أصلي للماسوشية لكنه يمتلك عائقاً في أن بيولوجية ما تعرقله، مع المخاطرة بالنسبة لمسألتنا في سحب الصلة بين الأنوثة والماسوشية إلى فعل من أفعال الطبيعة، وفي أن نفقد فيه الصالة النفسية الجنسية. هذه المخاطرة، يمكن أن نقيسها بالتعليق الجنسي البيولوجي الذي طرحته «تيريز بينيديك» عن معايشة النعوظية للنساء: «إن التقلصات العضلية على المحك في التوتر ما قبل النعوظي والاسترخاء النعوظي، الذي يمتد إلى أبعد من الجهاز العضلي للأعضاء الحوضية وحتى الجهاز العضلي للفخذين والإليتين، يشكل، بصورة احتمالية، الجوهر الفيزيولوجي للماسوشية الموضعية التهيجية»[1].

ثالثاً ـ القلق الأنثوي، ملاحظات حول النرجسية

لعل التعديلات في تصوره عن القلق والتي انغمس فيها فرويد في كتابه «الكبت، عَرَض وقلق» هي مناسبة لتناول الإشكالية العامة للقلق الأنثوي.

أول نظرية فرويدية عن القلق هي الأكثر توضيحاً بيسر بالمثال السريري حول الرهاب. عملية الكبت هي تفكك مجموعة من التصورات التي لا يحتملها الإدراك (وهي مرتبطة مثلاً بالرغبة الزانية) عن التأثر (حب أو كراهية، مع شحنة من التهييج). فالإنفكاك عن

(1) La sexualité féminine controversé, op. cit. P. 53.

التأثر هو مؤشر لغزارة مشاعر الروح، وعجزها عن حصر الناحية الشبقية المحررة. وتشكل هذه الفترة من الارتباك،على نحو خاص، القلق مع موكبته من التصورات الجسدية، حيث تقلق القلب وتقطع النفس وتصيب البطن. وهكذا يتم تصور القلق على أنه قلق أمام الشبقية، وأمام الخطر الدافعي، وأمام الخطر الداخلي، وهو ينجم عن انهزام الأنا أمام هجمة المكبوت، والمفرط. ويكمن العمل النفسي للربط في إيجاد «سبب» لما يبدو بلا أداة. ويمثل الرهاب في هذا المنحى حلاً لافتاً معتبراً يزيح الخطر عن الداخل (يستحيل الهروب) نحو الخارج (يسهل تفاديه).وهكذا يكون مثله كمثل رهاب الحيّة الأنثوي، والذي هو مبتذل بصورة ملحوظة بقدر ما هو شامل، فالارتعاش أمام الحيّة يُستبدل بتصور القضيب (الأبوي، الأمومي) والذي هو مرغوب بقدر ما هو مُهاب.

لنستطرد بحالات الرهاب الأنثوية النمطية (سواء كان فأراً، أم دودة، أم عنكبوتاً..إلخ). يتواجد الخطر عندما نطبق عليها «مفتاح أحلام» خافض. هناك بالتأكيد رمز نمطي، كالرمز الذي يربط رهاب الخلاء بالهوى التخيلي للعهر. وحتى أحياناً من المدهش جداً أن نسمع من امرأة إلى أخرى تتخيل السيناريو نفسه،بخصوص الميترو مثلاً، فالخوف في أن قاطرة الميترو تظل محتجزة وسط النفق، أو أن ترى رجلاً يعتدي عليها (أو جميع الرجال ركاب القاطرة)، مع عدم إمكانية الهرب. لكن المعادِل الرمزي النمطي قد لا يكون معنياً أو مبعداً إلى المستوى الثاني، فإذا الفأر يسترعي الانتباه بصورة طوعية فلأنه «ينساب أينما كان، وحتى عبر أصغر الثقوب». وبالنسبة لمريضة

مثل هذه، إنه في الربط اللاشعوري مع الفأر،يُبنى الخوف. مثل ذلك، التصورات الرهابية كالأحلام، ومعناها لا يمكن بلوغه خارج ترجمة التآلفات التي نولدها.

ويبقى ضمن إطار النظرية الأولى للقلق، والنماذج السريرية لهستيريا التحول وعصاب القلق المثيران للإهتمام أيضاً بعلاقتهما بالأنوثة. ففي الحالة الأولى،يترمز الصراع النفسي (بين الاقتراح الشبقي وما يمكن للأنا أن تحتمله) في الأعراض الجسدية، إضافة لأمور كلاسيكية،على سبيل الذكر، الانزياح من الأسفل إلى الأعلى، ومن التناسلي نحو الفموي: «كرة» بلعومية، أو إقياء هستيري..إلخ. وفي الحالة الثانية، ينعكس القلق على الجسد أيضاً، إنما يأخذ شكل شخص متوحش، غير مرمّز، وقريباً من الفوضى النفسية الجسدية،ميله للعبور في الجسد، وفي ترجمته بأعراض جسدية أو أمراض عضوية.

النظرية الثانية لفرويد، تقع في مركز الكبت والعرَض والقلق، وتُجري انزياحاً راديكالياً، حيث أن مصدر الخطر الذي يستجيب القلق له ليس داخلياً مطلقاً (الشبقية غير مرتبطة بتصورات)، إنما خارجياً. فالقلق في نهاية المطاف هو دوماً قلق أمام خطر فعلي، والإخصاء نموذج عليه، حتى لو أن «واقعية» هذا القلق لا تتعلق إلا باعتقاد الفتى. وفي الوقت نفسه، يصبح قلق الإخصاء نموذجاً لأي قلق (أطروحة توضحها العيادة الذكورية وتنطبق على «هانس الصغير»، أو رجل الذئاب، وهنا تكتسب الأنا أهمية لا تمتلكها من ناحية أخرى لدى فرويد. إننا نفكر بالأطروحة التي ستساندها «م.كلين»، حول مقاربة بين لاشعور الأنا والقضيب الأداة.

الحركة نفسها التي جعلت فرويد يوافق أكثر فأكثر على مكانة أولية العضو القضيبي، قادته لتصور قلق الإخصاء كقلق من أعلى درجة. والنساء؟ و«العائق» الذي يشكلنه من أجل التنظير يجر فرويد إلى وضعه على بساط البحث، ما أتى على إقراره بصعوبة. فالإخصاء يهدد القضيب أو بدلاءه، ولا شيئ آخر. وبصورة متلازمة، قد لا يدري إن يجد فيه قلقاً للإخصاء عند النساء إنما، كما رأينا، فقط «عقدة» فالنساء لسن أقل تعرضاً للقلق من الرجال (بل بالأحرى أكثر، هذا ما اعتقده فرويد نفسه)، ماذا يمكن أن يكون مصدره؟ هناك فترة من التردد لا تخلو من الفائدة كما أردفت «م. كلين»، وتفتح باباً على نمو غني، غنيّ خاص، ويقود فرويد إلى إعادة منح «الداخل» مكانته، وأيضاً منح الاقتحام الداخلي من قبل الدافع مكانته أيضاً، والاقتلاع الصادم لحدود الأنا، وبموازاة ذلك الاعتراف بالقلق الأنثوي شكلاً أولياً لقلق مرتبط مع الشكل المُعَد لهذا القلق وهو قلق الإخصاء. انقلاب بالمنظور إذاً. وليس من قبيل المصادفة إذا غابت مسألة القلق الأنثوي هذه، عن المقالتين (المركزتين على العضو القضيبي) اللتين كرّسهما فرويد للنزوع الجنسي الأنثوي.

قبل أن نعرض هذا التطور الفرويدي الأخير، من المناسب أن نحدد بعض المبادىء. فحالات القلق في ارتباطها بالجسد الداخلي عند المرأة، تخص تماماً الأعضاء التناسلية والخوف من الضرر الذي قد يلحق بهما، والذي يُعبَّر عنه، مثلاً، في الخوف من الإصابة بسرطان الرحم، وهناك ناحية قابلة للإهمال عند مريضة الأطباء النسائيين، ترتكز على إدمان حالات القلق هذه. وبالنسبة لتحليل

حالات القلق قيد البحث، كنا قد أشرنا أنه كان يتبع ميدانين كبيرين، أحدهما يقود إلى الأمجية الأبوية وإلى اقتلاعاتها، والآخر إلى الأمجية الأمومية وتفنيداتها. ولا يمكن بأي حال تسمية حالات القلق هذه «قلق الإخصاء» الشيئ الذي قام به كثير من المؤلفين!؟ حيث يكمن الخطر بمجرد الخلط في تسمية التشكيلات النفسية المختلفة جداً فيما بينها. وقلق إخصاء (القضيب)، لما هو قلق معذِّب، يأخذ أيضاً دوراً في ترميز أساسي، إنه يحصر الخطر المداهم ويطرح خطر تصوره، سواء خطر الشبقية الزانية أو التهديد الأبوي، اللذان لا يشتملان في ذاتهما على حدٍّ معين من الخطر. وأن نتخذ مثلاً هذه الفترة للإخصاء الذاتي لدى الرجل على أنها إخفاق تام، تكون تجربة مؤلمة بالتأكيد، لكن التحليل حين يسمح بها، يعود إلى أن (فش الورم) هو دوماً تراجع حذر أمام الخطر الذي، من أجل أن يكون داخلياً ولاشعورياً وخيالياً، لا يكون أقل ارتياباً على النفس، والذي غالباً ما يقود إلى مقاربة هائلة مع الأم الشهوانية. ومن جهة أخرى، ليس من السهل تحديد، في هذا الظرف، من هو الأكثر قلقاً، الرجل المهزوم أم المرأة التي تذكِّرها بشراسة بأولية الآخر والتي تعيش، كجرح نرجسي، فشل الرغبة عند شريكها؟

إن قلق المرأة حيال أضرار أعضائها التناسلية لا يطرح بتاتاً نفس الخصائل المرمّزة لقلق الإخصاء. فالداخل الأنثوي، غير مرئي، وذو حدود غير مؤكدة، وإصابات غير معللة، ـ مهما تكن المعارف التشريحية التي بحوزتنا، كما أن الطبيبات النسائيات، كما يشير التحليل، لسن في مأمن أيضاً ـ وليس هذا الداخل كالعضو القضيبي، مهيئاً للدخول في سلسلة رمزية. إن قلق الإخصاء الذكوري، والتواطؤ

الذي يداوم عليه مع الأنا الأعلى الأبوي، والاجتماعي (ترجمة لفرويد)، يلعب دوراً حاسماً في طور التسامي، وفي التحويل الدافعي نحو أنشطة غير جنسية. إن حالات القلق المتعلقة بالجسد الداخلي عند النساء، إذا انفتحت بصورة لا تقبل الجدل على تعمق «الداخلية الباطنية» ـ التحليل النفسي هو هنا ليشهد على ذلك، إنما أيضاً هو في أدب «مدام دي لا فاييت» إلى «مرغريت دوراس»، ومن «البرنسيس دي كليف» إلى «لول ف. ستين» ـ تجد بيسر أكثر مخرجاً نكوصياً والذي سلسلته، في تدرجها، لانهائية تقريباً، من شق الرحم القيصري إلى بلوغ الجوع الشديد.

وليس نادراً أن يبرز مجدداً، في كنف نظرية التحليل النفسي، الحلم القديم بالمناظرة بين الرجل والمرأة. فلماذا يحمل أحدهما قلق الإخصاء وليس الآخر؟ ومهما كانت نقاط عدم التوافق التي قد تمتلكها في الأطروحة الفرويدية، علينا أن نعترف له بهذا القسط من الحقيقة، في أن التطورات النفسية الجنسية للرجل والمرأة ليست تناظرية. وبالنسبة لترجمة عدم التناظر هذا باللامساواة، يعني أنه على صلة مسبقة بمنطق العضو القضيبي.

طريقة أخرى لإعادة التناظر بموضوع القلق يعود لـ «ف. دولتو» حيث كتبت: «القلق من اغتصاب الأب، في العمر الأوديبي، هو خلال نمو الفتاة مثل القلق من الإخصاء خلال نمو الفتى»[1]. وهنا أيضاً يفرز التوازي الالتباس أكثر مما يفرز الوضوح. فالقلق الأوديبي

---

(1) Sexualité féminine, Le livre de poche. P. 99.

من الاغتصاب لا يمكن تمييزه عن الشهوة المطابِقة، إنها سهوة الجماع مع الأب. وإذا أُخضِعَت الشهوة للقلق، فلأنها على ارتباط،في آن واحد، مع ما يُتصوَّر من المغالاة للجنسية الراشدة (لقضيب الأب)، ولسادية الرجل أثناء الجماع، ولمخاوف من الانتقام الأمومي. إن قلق الإخصاء، ليس قلقاً في حد ذاته أمام رغبة الإخصاء! وحينما يتواجد هذا على المشهد النفسي، فيعني أننا خارج أوديب وخارج العصاب، أما الماسوشية الانحرافية، على سبيل المثال، ففيها يكتسب الإخصاء نفسه معنىً آخر تماماً. إننا نفقد بمحض إرادتنا إعادة التوازنية أكثر مما نفقد في محاولتنا التحرر مما تفعله التبديلية من جنس لصالح آخر. وعلى هذا الدرب الأخير، هناك فرويد إذاً، فرويد غير القضيبي، الذي يعترف بالقلق الأنثوي البالغ في «القلق من فقدان حب الأداة».

هل يوجد يا ترى في كل امرأة «بيرينيس»[1]، «بحب عديم الفائدة، مضحية، رابطة الجأش لدرجة هائلة». الخوف، المنتظم تماماً، والذي تعبر عنه المرأة في أن يغادرها الرجل، وليس المحلل النفسي وحده من يسمع ذلك. ينبغي القول إن الحراك المعاصر للعلاقات الغرامية هو بدل لمثل هذا القلق. وهذا لا يُعَد بالطبع إلا تظاهراً أكثر جلاءً، إنما ليس الأقل أهمية لقلق فقدان حب الأداة. والاحتجاز الذي تمارسه الأم بالنسبة لمكان أولادها، في حين أنهم قد أصبحوا راشدين، يستمد كذلك من هذا المصدر، وإذا تواجدت

(1) أميرة يهودية في تراجيديا لـ «راسين» (المترجم).

صدمة الولادة، فهي أولاً من أجلها. وأن يتعلق الأمر بالرجل حول الرحيل، أو بالطفل المستعد للتحليق بأجنحته الخاصة، فقلق المرأة، والأم، يشهد بحد ذاته تنوعات هامة، فإما يتسجل في إشكالية تنافس أوديبي(فقدان لصالح آخر) أو مكتئبة (لهجره). يتمثل المظهر الأول والثاني في الترحيل التحليلي، وبصورة خاصة جداً عند الانقطاع الذي تخلقه العطلات.

المسألة الغامضة هي طبعاً في فهم الصلة الموجودة بين قلق ما (لا يُعفى منه الرجال أو أنثوية الرجال) والأنوثة. ونعتقد «بصورة طبيعية»، ولا نشك أننا مخطئون، بتغيير الأداة التي تلتزم الفتاة بها أثناء الطفولة، من الأم إلى الأب. التغيير هو في بادىء الأمر فقدان حب الأم، أو حب الأداة الأولى. ومن المعتاد أن العلاقات بين الفتاة والأم تنسق على مهل المؤشرات الأكثر نكوصية للتعلم وللملامة (أو عدم التفاهمات) بلا هدف. وفرويد ـ الذي يلح من ناحيته، على العكس، على تهدئة القلق الذي يتم الشعور به عند الانعطاف نحو الأب ـ يرجع أبعد من هذا التغيير الأوديبي، إلى مصادر الحياة النفسية الجنسية، وإلى حالة العجز التي يتواجد بها الرضيع إزاء الراشد. ويكتب أن القلق الأنثوي من فقدان الحب، يمتد إلى قلق الرضيع[1]. ومن المهم هنا ألا ننسى الحب العابر، أي الشبقية. وقلق الطفل الصغير (أمام وجه غريب، وفي الظلام..إلخ) لا يُفسَّر بواقع غياب الكائن المحبوب، إنما بعجز الطفل عن مواجهة

(1) Angoisse et vie pulsionnelle. Nouvelles conférences d' introduction à la psychanalyse, op. cit., P. 119.

هجوم الداخل، ألا وهو الشبقية غير المشبعة. العرض الشبقي سعياً وراء أداة الحب وعدم العثور عليها، يترك مجالاً للقلق. ولنضف مع فرويد أن الفارق بنيوي بين المطلب الشهواني وإمكانيات الاشباع، يعود الثدي عبثاً، يصرخ الفم «المزيد». أداة الحب، كما هي، أداة مفقودة. ونستحضر أحياناً نوعاً من الدلافين ـ التي ما أن يتواصل الزوج منها حتى يستحيل أن تفترق عن بعضها ـ على نبرة تشبيهية بالإنسان، ومع ذلك لا شيئ بعيداً عن الحب الإنساني من ذلك التلاؤم والتوافق.

بماذا يعدَّ أنثوياً قلق فقدان الأداة، وأي قرابة خفية تجمع الرضيعة والمرأة في حالة من القلق؟ لا يجيب فرويد. وفرضيتنا الخاصة تتمسك مباشرة بالاعتبارات السابقة بخصوص السلبية والذاتية الداخلية، وذلك بحسب اتجاهنا لأن الكائن المخترَق، وهي صفة الوضعية الأنثوية، هو مع الكائن المقتلع الذي يحدد انفتاح الطفلة على الحياة النفسية الجنسية، في علاقة تراكبية. هذه الأنثوية السلبية الأولى لكل طفل صغير (وتشمل الفتى)، يمكن أن نصفها بما قبل الأنوثة إن أردنا ذلك، وبالمعنى حيث لم يؤخذ بعد بالفارق بين الجنسين. والأنوثة، بحصر المعنى، تفترض بالفعل أن تكون على صلة مع تطفل مثير، صادم، ومؤسِّس لحياة جنسية مع اختراق القضيب الأبوي.

ملاحظة: ***حول النرجسية***

إن العلاقات بين النرجسية والأنوثة، لا تمت بصلة، بغنىً أو بتعقيد، للعلاقات التي تخص الماسوشية والقلق. وسنكتفي هنا بملاحظات مختصرة.

يذكر فرويد أن الأنا لا تتشكل كوحدة فوراً. فتاريخ تأسيسها لا ينفصل عن تكوين النرجسية المعروفة كـ «تجمع توحيدي لحب الذات من أجل الذات، أو من أجل الصورة الخاصة»[1]. ويتعلق الطور في آن واحد، بنضوج بيولوجي، ضمن اتجاه الاستقلالية دوماً أكبر للوظائف الجسدية والنفسية، ولاستبطان التجربة الذاتية الداخلية. التماهي مع صورة الغير، والاندماج بعلاقة حب يلعبان دوراً حاسماً، في فترة بنيوية تعرّض لها «لاكان» بوصفها مرحلة مرآة. ومن أجل «أن يتحابب المرء مع ذاته»، ينبغي أن يكون اثنين من الناحية النفسية، وينبغي على الأم المحبة الراعية أن تصبح شخصاً نفسياً، وأداة داخلية. والإعداد المُرضي للنرجسية، يأخذ مكانة أساسية في طور الانفصال الإفرادي للطفل الصغير بالعلاقة مع الراشد. وهو يشكل، من ناحية، استجابة لإحباطات وحرمانات لا يمكن تجنبها لبدايات الحياة الدافعية. وما نسميه «الأمراض النرجسية» هي بالفعل أمراض «من» النرجسية، والتي يتواجد مصدرها أيضاً في «عدم الاكتفاء» إلا بـ «الإفراط» في العوز كما في اجتياح الإسهام الأمومي. ومؤشر هذه الأمراض يكون في حالة من التعلق يُترجم في الحياة بحلول «مجموعة» وهي الأكثر اختلافاً.

لعل ما يهمنا من العلاقة مع الأنوثة، هو هذه الحركة نحو الاستقلالية، والانغلاق على الذات، وممّ تتكون النرجسية، ووظيفة الحماية التي تقوم بها حيال (الأداة) و الأضرارحيث يكون الأنا خلالها، قيد التأهيل. وعندما يُستحضر التطور نحو الجمال (أي مجموعة التنبهات المتعلقة بظاهر الجسد) عند المرأة والفتاة، يوحي فرويد و «م.كلين» بسببيتين نفسيتين متميزتين. ويشير فرويد إلى أن البحث عن الجمال هو تعويض عن عيب تناسلي، فالجسد (يصنع من نفسه) عضواً قضيبياً لتعذر امتلاكه. فيما الجمال بالنسبة لـ«م. كلين» هو استجابة من الخارج إلى الداخل، فالواحد ينشغل بترميم وتمويه حالات

(1) A. Green, Le complexe de castration, op. cit., P. 59.

القلق التي يكون الآخر أداتها. والأجدر من تنافسهما، هو القول أن لكلا المفهومين مبرراته وصوابه، فالجمال - بالبحث المجدي عنه - هو في العمق عَرَض كغيره، وربما من العبث أن نقلل من شأنه في تبني معنىً أحادي. وإذا تباعدت وجهات نظر فرويد و «م.كلين»، فإنهما سيلتقيان في نقطة واحدة: هي التعويض والترميم. كما لو أن الفتاة، أكثر من الفتى، تعرّضاً للأضرار الصادمة، فإذاً هي على حراك أكثر بالمنطق النرجسي للترميم.

ما عالجناه آنفاً حول موضوع السلبية والقلق، منطلق تماماً من هذا المعنى «الحركة النرجسية في الانغلاق على الذات، ولانكفاء الشبقية على الأنا، لا يمكن إلا أن تثير الكائن الجنسي الذي تتحدد وضعيته بالفتح أو بالاختراق». وتتهيأ نرجسية الطفلة الصغيرة جداً بالاستجابة للاقتلاعات التي تكون أداتها (النفسية والجسدية) الأنا. والتواصل الذي أُشير إليه سابقاً بين الرضيع «بصورة طبيعية» السلبي والوضعية الأنثوية يفرز أيضاً آثاره على أرضية النرجسية.

لقد أصرّينا على أهمية الفتحات في الجسد، كأماكن لأولى التبادلات، من تدخل وتطفل واختراق، بالرعاية والحب، وكسوابق وأمثلة للجنس الأنثوي. وفي معالجاتها حول بشرة الأنا، تصرّ «د. آنزيو» على موضوع أن التطفلات الفوهية ليست محتملة - أو بالأحرى مشبِعة - إلا على خلفية يقين للحدود بين الداخل والخارج، حدود تشكلها البشرة بالنسبة للجسد، وتمثلها بالنسبة للنفس. وليس هناك لذة ممكنة من الاختراق إلا بامتلاك شعور مطمئن بكمال الغلاف الجسدي[1]. لا يستأهل تضامن الكليات: مثل النرجسية والجسد، الفوهات والأنوثة أن نطيل الكلام عنهم أكثر، وسنكتفي هنا بإيضاحين مختصرين:

---

(1) D. Anzieu, Le Moi - peau, Dunod, 1985, P. 35. sq.

ـ المثلية الأنثوية، بما عليها من خيار الأداة في الاتصالات الأولى بين الأم والفتاة، وما تقتبسه من الشبقية النرجسية، تترافق بتفادي الاختراق فيما عشقية البشرة موظفة بشدّة.

ـ كنا قد تطرقنا عما يجب على طبيب النسائية فعله حيال القلق الأنثوي، لكن طبيب الجلدية له مهامه أيضاً في العلاجات والعمليات الجراحية التجميلية، وخاصة عند ظهور أول تجعّد للمرأة.

رابعاً ـ مظاهر البلوغ والمراهقة

تعني مرحلة البلوغ لدى الفتى، مجموعة الأطوار الفيزيولوجية والجسدية التشريحية التي ترافق نضوج الأعضاء التناسلية، وهي ظاهرة متأخرة على نحو خاص. وأقل ما في الأمر أنها تأخذ وقتاً ليكون القدوم بلا تعثر أو صدمة. لكن من غير المتوقع أن تأتي مرحلة بلوغ الطفلة دوماً مبكرة جداً، كهجمة جنسية.

وعند استذكارنا لمرحلة المراهقة، نجد دم الحيض يسيل للمرة الأولى قريباً جداً من «قذارة» أماكن التغوط، ، والنهدان يكبران، وشعر البشرة ينمو، والبشرة نفسها تتغير، مع الشعور بالاستياء من ذلك،أو بالأحرى عندما يمتزج بها حَب الشباب. إنها فترة من الحياة تكون للجسد ولمشهد تغيراته، محتومة ولا يمكن السيطرة عليها، كما أنها مرجوة بقدر ما هي مخيفة.

إن هجمة البلوغ، عند الكائن الإنساني، تفرز أشد نزوع جنسي غريزي. وفشل الغريزة في تحقيق غاياتها على نحو فوري (سواء الجماع أو التناسل) ليس إلا حادثاً غريباً. حيث أن مرحلة البلوغ،

وهي الوصول إلى نضج تناسلي، لا تتوافق مع تولد النزوع الجنسي الإنساني. هذا النزوع الذي له تاريخ طويل منذ المص الأول. فالتحولات الجسدية التي تنفتح على مرحلة المراهقة تندرج على خلفية لنزوع جنسي مؤسس مسبقاً، ولاشعوري في جوهره. وهجمة النزوع الجنسي لمرحلة البلوغ لا تُغلِق فصل النزوع الجنسي الطفولي، إنها بالأحرى تفتح فيه مجدداً ثغرات، وتجدد فيه الاقتلاع، وتحيي فيه النزاعات، حتى ولو أن شدتها كانت متصلة اتصالاً مباشراً بنوعية الإعداد النفسي الخاص بها عند الانحلال الأوديبي. فالتأسيس القائم على مرحلتين للنزوع الجنسي الإنساني يقترن بالزمانية مع الصدمة النفسية.

من بين المؤشرات الأكثر ثباتاً والتي تشهد على البعد الصادم للنزوع الجنسي النفسي للمراهق، والمستقل عن أي ظاهرة مرضية خاصة، هناك الوظيفة الإضفائية (الإسقاطية) وترجمتها إلى أفعال أو سلوك صراع نفسي. وال «خطأ» هو خطأ الأهل، و«المدرسين»، وعالم الراشدين بصورة عامة. وعندما يتبين أن الصراع النفسي الداخلي يستحيل التصالح معه، وعندما يُنهِك العالم الداخلي فعاليات التعبير بالرموز، تقول «كاترين شابير» «يتم مناشدة الخارج، ويصبح المغيث الوحيد»[1] ويتيح الاستنجاد بالخارج التحول عن الداخل. والأفعال المراهَقة التي لا نهاية لأشكالها ـ ابتداءً من إغلاق الباب بعنف إلى محاولة الانتحار ـ تدل على فشل التهيئة المتعلقة

(1) Deux ou trois contes que je sais d'elles..., Revue française de psychanalyse,1987,3, P. 988.

بالهوى التخيلي، وعجز النفس عن مواجهة الهجوم الدافعي القوي.

إنما الصعوبات ليست بالأصل العالم الوحيد الداخلي. فمرحلة البلوغ والمراهقة للفتاة الشابة تحرك المحيط الراشد بأكثر من مجال. ويتغنى الشاعر بالقول «هاتِ سنواتك الست عشرة»... والمؤشرات الأنثوية المتولدة، في كل زمان ومكان، تثير الاهتمام الشبقي عند الرجال. فالمس برفق، وملامسة النهدين، والنظرات الخفية أو الخاطفة أو الملحاحة، والدخول المفاجيء إلى الحمام..إلخ، تشكل جزءاً من «تربية الفتيات الشابات». وبهذه اللعبة المعقدة للإغواء، لا يلعب الراشد لوحده، إنما المراهِقة تساهم بقسط أكبر بغرامية صلاتها القديمة.

فالعلاقات مع الأم ليست بسيطة، إنها تنطلق من العودة إلى التعقيد، وإلى الحرب المفتوحة. والتقارب المتماهي بين الأم والبنت، حتى الازدواجية الاحتمالية، ليس ما يعادله مطلقاً عند الذكور. وعلى أحد أوجه هذا التضامن النرجسي، يتمثل الحب المتماهي للفترات الأولى، وعلى الوجه الآخر يشكل طريقة للانغلاق على الاختراق و الاقتلاع الجنسي (للرجال). وبالطبع يمكن لعلاقة الأم بالفتاة الشابة أن تكون علاقة صراع، وتحديداً حينما يُترجم الوصول إلى النضوج الجنسي من أحدهما، كسلب للرغبة التي كانت إلى الآن أداة.

كنا نستحضر في المقدمة البساطة التي قد توجد عند ترجمة مقولة «التحررالجنسي» بالحرية النفسية. وأكثر أيضاً من المرأة الراشدة، المراهِقة هي أيضاًشاهدة كما يقول «ب. بروسيه»: إن

استباق «التطبيع الثقافي للممارسات الجنسية، غالباً ما يؤدي، علاوة عن الإحباط، لا بل الاشمئزاز، إلى ابتذالية ما، وإلى انفصال مألوف عن المشاعر»[1] إن الانزياح الحالي للأداة نحو الدافع في مضمار النزوع الجنسي هو بلا شك لا زال بالنسبة للفتاة أكثر صعوبة على التآلف من الفتى. وبالفعل: سقوط أداة الحب إلى مرتبة الشريك القابل للتبدل يتوافق مع الأشكال البدائية للقلق الأنثوي، مع قلق فقدان حب الأداة.

مرحلة البلوغ هي مرحلة من الحياة تختص «بأوائل الأمور»: أول حمالة صدر، وأول تبرج، وأول لفافة تبغ، وأول قبلة.، إلخ وبالطبع أولى فترات الحيض.

«وعندما ستحس امرأة ما سيلان الدم من جسدها، وستبقى سبعة أيام بالدنس، فكل من سيمسها سيكون غير طاهر حتى المساء» (ليفيتيك xv، 19). إن ذعر دم الحيض هو أحد المعطيات الشبه شاملة والتي، منذ زمن بعيد، كان «دوركهايم» قد قيَّمها[2]. وقد كان الاعتقاد في القرون الوسطى أن الرجل قد يُصاب بالجذام (البرص) عند مجامعته لامرأة في فترة الحيض. وقد فقد عصرنا الترميز القديم الذي كان يقوم على التقاء الدنِس بالمقدس، وكان يدخل دم الحيض في

(1) Psychopathologie et métapsychologie de l'addiction boulimique,in La boulimie, «Monographie de la Revue française de psychanalyse», PUF,1991, P. 113.

(2) La prohibition de l'inceste et ses origines, L'année sociologique, n°1, 1898.

تركيب الجرعات الشافية من الدمامل ذات المنشأ التدرني. مما لا يعني أن الذعر قد اختفى، فالدعايات المتلفزة للفوط الصحية تشهد على أن صيغة الكبت، لا زالت في أوجها، والعلاج الاجتماعي المعاصر لظاهرة الحيض الأول يحتوي على نفس ملابسات «الثورة الجنسية». وعن هجمة «القذارة» التي ينبغي التزام الصمت والتكتم عنها، غالباً ما يعقبها مقولة عائلية «متحررة»، وكم هو مضلِّل، من يجعل الشروع المباغت للحيض آخر موضوع يجري الحديث عنه. ومن يستطيع القول، عن هذين الموقفين، أيهما أصعب على الفتاة الشابة من الناحية النفسية؟ فالكلمات تتغير، والصدمة تبقى. والإغواء والتطفل الراشد قد يزيد الطين بلة، كهذه الأم المبتذلة بإصرارها على الإشارة لابنتها كيف تستعمل الفوطة النسائية لا تتخلى بسهولة عن نفوذها على الوظائف الجسدية. ويمكن أن نضيف إلى ذلك أيضاً علبة الحبوب المنسابة إلى الحقيبة للعطلات الأولى بعد قدوم الطمث.

وتعد تجربة الطمث الأول أيضاً فترة بناء. وقد دونت «بيتلهيم» قيمتها الطقسية كتعليم عفوي، لا نظير له عند الفتى. ومن المبتذل أن تبتدع الفتاة فترة حيض لم تحصل بعد، بغية حق اعتبارها إحدى «مجموعة الكبار».

وعلى صعيد التصورات النفسية، لا يمكننا أن نعطي حدث الطمث الأول معنىً أحادياً. فالزهو عند إحداهن، يقابله الانكفاء والخجل عند الأخرى. وبنظر الأنوثة اللاشعورية وصراعاتها، تزاوج الترجمة التحليلية النفسية بين اتجاهين متطابقين مع محورين كبيرين نظريين تم عرضهما سابقاً. ففي منظور فرويدي، يتركز حول إشكالية

الإخصاء، توضع صدمة الطمث الأولى بالحسبان بتوازن لاشعوري بين «الدموي» و «المخصي». وفي مسلك آخر، يشير «جونز» إلى أن «القطع» ليس إلا معادلاً محتملاً «للجرح». وربما المماثلة بين دم الحيض ودم الإخصاء، أليست مماثلة ثانوية بالرموز، مقنعة بجرح الفتحة النفسية والجسدية؟ إن مرحلة البلوغ بالنسبة للفتاة، هي الجسد الذي ينفتح مجدداً، والذي ينزف، مستدعياً بطريقة خاصة حيوية، الدفاعات النرجسية تجاه الثغرة التي حصلت هكذا. ومن الداخل ومن غموضه ومن حالات قلقه القديمة، تتولد مرحلة البلوغ مجابهة النفسية الأنثوية، محمَّلة بهوىً تخيلي مفرط للواقع. إن مرض الامتناع عن الطعام أو الشراهة المفرطة، هما صفتان شديدتان لمرحلة المراهقة، وتشكلان إجابتين علاجيتين متضامنتين (أن لا شيئ يملأ الثقب الكبير) للقلق حيال الفراغ الداخلي، فراغ يمتلك التمثل المهبلي إزاءه كثيراً من المعاناة في تحديده وحصره.

حول الاستمناء

في الحين الذي يلعب فيه الاستمناء دوراً أساسياً بالنسبة للفتى في التقدم نحو النضوج الطبيعي الراشد، «لا يبدو أنه يلعب الدور نفسه في النمو الجنسي للفتاة الشابة»، هذا ما أورده «إيغل لوفر»[1] معبراً هكذا عن شعور مشترك إلى أبعد حد. فالاستمناء لا يصنع من الناحية العملية تشويهاً أبداً لدى المراهق، فيما قد يكون خاضعاً لدى المراهِقة لتغير فردي. فيُشترط إذاً الحذر. ويلاحظ

(1) La masturbation féminine à l'adolescence, Adolescence, 1983, n°2, P. 349. Cf. aussi M.et E. Laufer, Adolescence et rupture de développement, PUF, 1989.

«م. غريبنسكي»، امتداداً لملاحظة فرويد: «نقول للفتاة الصغيرة: لا تفكري، وللفتى: لا تمس»[1]. هل الصمت الخاص بالفتيات الشابات، المتعلق بالاستمناء، يعني انعدام وجود الفعل، أم أن انعدام وجود الكلمات من أجل التفكير به، أبعد حتى من صعوبة الاعتراف به؟

وإذا قبلنا، كأمر محتمل، كبتاً أكثر شدّة للاستمناء ـ ذلك الذي يحصل باستخدام اليد ـ لدى المراهِقة أو المراهق، كيف تتم ترجمته؟ في محور النظرية الفرويدية، سنرى فيه تجديد نشاط اكتئاب ما بعد الإخصاء: عيب طول البظر قياساً بالقضيب، لن يعني شيئاً. ويعطي المؤلفون المعاصرون قيمة لمصادر أخرى محتملة على صلة بالصراع، مؤكدين على القيمة الرمزية لليد.

يلاحظ «لوفر» أنه بينما يتخذ الرضيع خبرة مطردة لجسده في انفصاله عن جسد أمه، يستخدم نشاط أصبع الإبهام ويضعه في الفم، وفيما بعد يستخدم اليد لسبر الجسد والأعضاء التناسلية كأساس لمماثلة إيجابية الأم حيال جسد الطفل. إن معادلة اليد والأم هي مصدر استحالة استمناء الفتاة الشابة، سواء لأنها تستعيد ذكرى مقاربة غير محتملة مثلية جنسية، أو لأنها منفلقة كأداة أولى، قد ترث اليد مقاصد حرمان وتدمير للأم «السيئة». إن اختيار وسائل أخرى للاستمناء، هاربة، على نحو أو آخر، من الإدراك (ضغط الفخذين مثلاً)، هو أولاً وسيلة لتجنب اليد والخطر الدافعي الذي تمثله.

وتفتح «جويس ماكدوغال» مجالاً آخر. فإذا كان مقدر لليد فعلاً أن تسد أول ثغرة يخلقها سحب الثدي ضمن الكمال النرجسي، فهي «لا تستطيع آجلاً أن تحل محل الجنس الناقص على الطفل في علاقة جنسية خيالية»[2]. وفي امتداد لهذه الملاحظة، إنها اليد ـ القضيب التي تمسك بها المراهِقة بمعزل

(1) Un pas sur le sable, Confrontation,n°6, 1981, P. 82.

(2) Plaidoyer pour une certaine anormalité, Gallimard, 1978, P. 72

عن جنسها الخاص. كما نجد صعوبة شديدة بالنسبة للنفس في تصور واحتواء الوضعية التناسلية الأنثوية (في أن تُخترق)، وعما تضعه على المحك بصورة خطرة من حدود للخارج وللداخل.

إن تنوع تلك التكوينات النفسية تساير إشكالية العَرَض، بل بالمبالغة في تحديده، كما تحذر من ادعاء إرادة رد ذلك إلى مصدر وحيد هو مسألة الاستمناء الأنثوي وكبته.

خامساً ـ المثلية الجنسية الأنثوية

«اعتدت على اعتبار كل فعل جنسي كحدث يشمل أربعة أشخاص». هذه الملاحظة، التي أوردها فرويد عام 1899، ستجد آجلاً عمقها النظري في فكرة عقدة أوديب، وفي شكلها المتكامل، الإيجابي والمعكوس، في جمعها بين الحب والتنافس والتماهي مع أحد الأبوين أو مع الآخر. ولكل منا الحب الأول المثلي الذي عاشه في طفولته مع أحد الوالدين من نفس الجنس.

ولعل النزوع الجنسي التبادلي هو الوريث لإشكالية النزوع الجنسي الطفولي والرغبات التي تركبه. إنه يلعب دوراً مهدئاً تجاه القلق بمحوه تبديلية الجنس الذي لا نمتلكه والمخاوف المرافقة لهذا الإقصاء. جنسان أفضل من جنس واحد!

إن أقدار النزوع الجنسي التبادلي متعددة[1]. ويمكنها أن تنظم في الواقع الحياة الجنسية للفرد، والذي من أجله ستتناوب العلاقات

---

(1) Sur cette question, cf.C. David, La bisexualité psychique, Payot, 1992.

مع هذا الجنس أو ذاك. وبسلاسة أكثر، ستجد نفسها في الثنائي، أي اختيار الأداة اللاشعورية المثلية أو التبادلية. وقد أشار فرويد، في نص مكرس للتكوين النفسي، لحالة مثلية أنثوية، وبوضوح كبير، لتواصل واستمرارية الفوائد التبادلية الجنسية قائلاً: «شبقيتنا للجميع، تجعلنا نتردد، بصورة طبيعية، طيلة حياتنا ما بين أداة ذكورية أو أداة أنثوية(...) ويلزم بعض الوقت لكي يُتخذ القرار بصورة حاسمة على الجنس أداة الحب»[1] وفترة المراهقة، حيث حالات التردد في النزوع الجنسي الطفولي تنتعش وتحيا من جديد بالهجمة الدافعية، وتشهد بجلاء هذا التأرجح الشبقي: «التنقلات المثلية الجنسية والصداقات القوية لدرجة مفرطة، مشوبة بنزوع حسي، هي أمور عادية تماماً عند هذا الجنس أو ذاك في السنين الأولى التي تعقب مرحلة البلوغ».

وقد سبق وأُشير إلى النزوع الجنسي المثلي اللاشعوري، بأن الرجال والنساء لا يوضعون في نفس الخانة. وببساطة أكثر، فإنه، بصورة رئيسية، بأنظار المجتمع يرى النزوع المثلي الجنسي نفسه لاشعورياً ذكورياً. والأحاسيس الجنسية التي تقرّب الأجساد، هي بالمقابل، محفوظة بعناية في الأعماق. وليس مصادفة إذا كانت غرفة ملابس الرياضيين، مكاناً تُطلق فيه أقاويل عن رجولة تنم عن كراهية المثلية الجنسية (من خلال الشتيمة). على عكس النساء، اللواتي يعشن، عموماً، بيسر المشاركة في الحميمية الجسدية، في حين أن

(1) In Névrose, psychose, perversion, op. cit., P. 245 sq.

حدة التنافسات تهدد، بصورة منتظمة، وجود مجموعات أنثوية اجتماعية. وتفسر الصيغ المختلفة للقلق لدى الرجل ولدى المرأة، هذا الاتجاه، على الأقل بصورة جزئية. وكل تقرّب جنسي من رجل يقرّب الشخص الذكري من الأنوثة (متصوراً الإخصاء في اللاشعور). وبالمقابل، حالات العثور على أنثوية حميمية تهدىء من قلق خسارة حب الأداة، القلق الذي لا تستطيع تحريكه من جديد إلا جماعية المجموعة.

والآن ماذا عن المثلية الجنسية، وبتحديد أكثر الأنثوية، عندما يكون خيار امرأة كأداة غرامية امرأة أخرى؟ وجهة النظر المشتركة اليوم على نطاق واسع، هي أن هناك كثير من الحالات تؤول إلى اختيار الأداة المثلية الجنسية، بحيث قد لا ندري إرجاع وجهة النظر تلك إلى تكوين نفسي واحد، أو على الأقل أيضاً إلى هوىً تخيلي وحيد. أحد بارامترات هذه الجماعية يتعلق بالسياق الذي فيه تتسجل المثلية الجنسية، فهي ليس لها معنى العصاب نفسه، أو الانحراف الجنسي. ومن ناحية أخرى، التنوع النفسي ليس بسيطاً بين المثليات الجنسيات، إنه داخلي في كل منهن. وإن تعلق الأمر بحالة الفتاة الشابة التي عرضها فرويد، فنلاحظ أن اختيارها للأداة يوجز تماهيات وتوظيفات (مشتقة من الصلات بالأب أو الأم أو الأخ)، وإشباع دافعي ودفاع ضد القلق.

هل يُدين هذا التنوع أي مقولة تحليلية نفسية حول المثلية الأنثوية نقص أداتها؟ وبلا شك يسمح وصف العشقية المثلية الجنسية بإقامة أول مستوى للتعميم:

«كنت أصغي لأصابعها تغني لأصابعي. كنا نتعلم، ونعي أن المؤخرتين هما شديدتا الحساسية. وكانت أيدينا خفيفة جداً بحيث كنت أتابع منحنى شعر إيزابيل الناعم على ذراعي، ومنحنى شعري على ذراعها. كنا ننزل ونصعد بأظافرنا نمحو الأخدود من فخذينا المنغلقين، كنا نحرّض ونزيل الرعشات. وكانت بشرتنا تجر أيدينا. ونسري فوق أمطار المخمل، وأمواج الموسلين بدءاً من عمق الفخذ وحتى عنق القدم، ثم نعود إلى الوراء، ونطيل هدير العذوبة، من الكتف وحتى الكعب (...) وكانت البشرة تعرض علي اللآلىء في كل مكان»[1].

«تيريز وإيزابيل»، رواية سيرة ذاتية لـ «فيوليت لودو»، هي على صورة غرامية المثلية الجنسية الأنثوية: كتاب مداعبات، وحنان، وسبر للجسد، «من الكتف حتى الكعب». وتدوّن «غرانوف و بيرييه» اللهجة الخاصة بالمثليات الجنسيات حول «الصفة القصوى للملذات اللتان تمنحانها لبعضهما بعضاً. ومن النادر ألا يترافق الإغواء الجنسي لدى النساء بعهد على المتع المجهولة»[2]. وإلى الأوحد القضيبي، تقابل المثلية الجنسية الأنثوية مرونة الجنس الذي تبيح لامرئيته بجميع الأجزاء: «أجساد ونهود وعانة وبظر وشفاه ومهبل وشفرين وعنق رحم ورحم...»[3] وتمتد غرامية اللمس لتشمل الجسد كله، مناشدتين زمنية تختلف عن الزمنية القضيبية للفعل الجنسي.

ويوجد نسبياً قليل من النصوص التحليلية النفسية حول المثلية

---

(1) Violette Leduc, Thérèse et Isabelle, Gallimard, 1966, «Folio», P. 112

(2) Le désir et le féminin, op. cit., P. 29.

(3) L. Irigarray, Speculum, op. cit., P. 289.

الجنسية الأنثوية، مع أن المرأة ذات النزعة المثلية غالباً ما تتردد على التحليل. وبعيداً عن المقالة التأسيسية لفرويد، أكثر المقالات شيوعاً هي مقالات «جونز» في: «النمو المسبق للنزوع الجنسي الأنثوي» ومقالة «جويس ماكدوغال»: «عن المثلية الجنسية الأنثوية»، ومهما تكون اختلافات اللهجة بين هذين النصين الأخيرين، فإنهما يدوران بشكل رئيسي حول نفس الصورة: إنها المرأة التي لا تحب إلا النساء، والتي يشكل التعاكس لديها كل حياتها الجنسية، إنها تحب النساء الأنثويات وتبحث عن أنوثة تحس نفسها مجردة ومحرومة منها. وما تبديه هو إهمال مظهرها الهندامي، وبعمومية أكثر هيئتها، إلى درجة لعب دور «القذارة» أحياناً.

ومن أجل هذا الانحدار نحو المثلية الجنسية الأكثر تميزاً، يسمح تكرار الأطوار في بناء التكوين النفسي.

وهناك تياران كبيران تمتزج تأثيراتهما: يندرج أحدهما في الاستمرارية الشبقية في حب الأم، وفي متابعة «المثلية الجنسية الأولية»[1]، فيما يدافع الآخر عن نفسه ضد الوضعية الأنثوية، وفي مواجهة تدخل القضيب المغتصب. هذه الصيغة الأولى هي نفسها مبسّطة جداً، فكل من هذين المظهرين له عدة أوجه. ولنرَ أولاً تمثيل القضيب والرجوع للأب. فصورته سلبية (جداً)، مهما كانت التصورات الملتمسة. جلف وقاسٍ لا يشغله إلا كسب المال... وكل

(1) Cf. E. Kestemberg «et coll» , Homosexualité et identité, Les cahiers du Centre de psychanalyse et de psychotérapie,n°8, 1984.

شيئ يسهم في (تحقيره). وهناك (تسجيل) مهيمن هو: شرجية الشخصية، فإقرار احتمالية أن: «الرجال، جميعهم خنازير» تحتم التمايز الأمومي. وإذا قيلت بصوت مرتفع، فالتماهي مع الأب هو، على عكس ذلك، مكتوم، وفي معظم الأحيان لاشعوري عميق. إنها تتمسك باختيار الأداة، وتحب امرأة تحمل علامات الأنوثة (كما يحب الأب الأم). كما تجد نفسها في الصورة التي لدى المرأة عن ذاتها: قبيحة، مهمَلة، قليلة الأنوثة...إلخ. وهناك أيضاً ما للتماهي مع الأب من تحول لتوظيف قديم بالنسبة لها. وحين تتواجد الشرجية في الشبقية، فتكون السند لعنف من هوى تخيلي موروث من تهجم القضيب الأبوي: «قد يكون الأصبع مزعجاً دوماً في الغمد الخسيس(...) كان الأصبع الهائج يضرب ويضرب. وكان لدي على جدراني إبرة مذبذبة تعجل وتحث على موته. عيناي تسمعان، وأذناي تريان: كانت إيزابيل تعاشرني بشراستها».[1] وبصورة عامة، إن الأدوار الملعوبة باللسان والأصبع تشهد بتمثيل القضيب. والمرأة، كما تكتب «ج.ماكدوفال» تبحث بشكل لاشعوري عن الحفاظ على علاقة حميمية مع الأمجية الأبوية أو مع العضو القضيبي المستبطن، والأب بحد ذاته غير موظف بصفته أداة شبقية إنما ممتلَك كمرجع بالتماهي معه»[2].

لعل المشهد النفسي المثلي الجنسي يتضمن القضيب، الأب.

---

(1) Thérèse et Isabelle, op. cit, P. 107.

(2) De l'homosexualité, in J.Chasseguet - Smirgel, La sexualité féminine op.cit., P. 247 sq.

وبات من المؤكد، أن المنحدر الأمومي يشكل النواة الأكثر لاشعورية. ويمكن أن ندون في هذا الإطار، التشابه مع المثلية الجنسية الذكورية، وعلى أقل تقدير مع الشكل الذي عزله فرويد انطلاقاً من دراسة لـ «ليونارد دافنشي». هذه الرابطة الأمومية للمثليتين الجنسيتين، والتي تشير أيضاً لعدم تماثل مراحل النمو النفسي الجنسي للفتاة والفتى، ربما تفسر القدرة للبعض على التعبير عن معيشة البعض الآخر. ولعلنا نعرف الصفحات الجميلة لـ «بروست» و«مارغريت يورسينار»، الأول في استشرافه للآنسة «فانتوي»، والثانية لغراميات «هارديان».

وقد أسبغت الفتاة المثلية على الأم هالة من المثالية، فيما الأب قللت من شأنه. فحوى الأمر أن المرأة تسعى كثيراً لتعثر على نفسها في شريكتها. ومع ذلك، يجب تعقيد المشهد في الحال، والبدء بهذا المفرد: «ال» أم، التي ليست إلا توليفاً متأخراً لتنوع من التصورات اللاشعورية. الأم،ككائن شمولي هي فعلياً شخصية تبنيها الطفلة بصورة متقدمة. فأولاً، هناك الثدي، والجسد الأمومي بأحشائه المختلفة بما فيها القضيب. ويبدو فعلاً أنه بهذا التجمع غير المتجانس، لهذه «الأم» الأولية، يرتبط اللاشعور مع المثلية الجنسية. الصبغة المثالية التي تصنعها الأداة تحمي من التناقض الوجداني في مكانه. الحالة العشقية في المداعبة تكرر ما لم يتم الحصول عليه، أو ما منعته ورفضته دوماً الأم على ابنتها. والصورة الأمومية متحفظة ورصينة بقدر ما هي مثالية، وفي الضبط أكثر مما هو في الحنان. والأمر على خلفية من إفراط بالخسارة أكثر من إفراط في استمرارية

الحب، يُبنى اختيار الأداة. أما حدّة الغيرة،فهي نادراً ما تكون غائبة في المثلية الجنسية الأنثوية، ولها أثرها أيضاً. وهكذا يحصل، على مشهد الهوى التخيلي، أن تمزج التدميرية الأمومية تأثيراتها المريعة بالتأثيرات التي يسببها القضيب المغتصب. وستذكر مريضة إشراكاتها الأولى (غير المصاغة حتى اللحظة)، عند دخولها إلى غرفة المحلل، انطباع أن تجد نفسها في مكان غير شرعي، وتمسك في آن واحد مخبر الإجهاض السري، والقاعة المظلمة لمفوضية الشرطة، ويدعم المحلل التصور المزدوج للمجهِضة و«رجل الشرطة» الغاصب. والمرأة المحبوبة في العلاقة الجنسية المثلية هي «أم» متعددة الأوجه: صورة تضفي عليها مثالية الأنوثة والتي يستحيل عليها أي تصور أو تماهٍ، وأم فموية مفترسة، وأم شرجية تفرض الخضوع، وأم سُلِب منها القضيب، والتي لحق بها ضرر داخلي يمكن ترميمه بواسطة المداعبات. وكانت «م.كلين» تميل لأن تجعل من هذا الهوى التخيلي الأخير مفتاح المثلية الجنسية الأنثوية. إضافة عن أن هذا التعداد ليس إلا جزئياً، ويهمل،على سبيل المثال، الدور المزدوج الذي يمكن أن تلعبه الأخت في الحكاية.

الأسلوب القديم للصلة بالأم، يتبين في العشقية من خلال مشاعر الارتباك: «لقد كانت يد إيزابيل، تجعلني أضطرب من حول أردافي، هي يدي، ويدي التي كانت على خاصرة إيزابيل، هي يدها. كانت تتراءى لي وأتراءى لها، كمرآتين تحبان بعضهما بعضاً»[1]. وقد

---

(1) Thérèse et Isabelle, op. cit., P. 111.

أصرّت «ج. ماكدوغال» بشكل خاص، في الاقتصاد النفسي للمثلية الجنسية الأنثوية، على ما هو «محنة الحفاظ على توازن نرجسي لمواجهة حاجة مستمرة للهروب من العلاقة الرمزية الخطرة التي تعلن عنها الأمجية الأمومية، مع الحفاظ على تماهٍ لاشعوري مع الأب، وهو عنصر أساسي في هذا البناء الهش». فتجارب إلغاء الشخصية ليست نادرة في مقولة مثل: «كنت أخشى أن يصير لساني أكبر بكثير من فمي».

هذا قول لمريضة، ويشكل صدىً للتجربة الباطنية لـ «بياتريس دورماسيو».

ويكمن للتصورات القضيبية في المثلية الجنسية الأنثوية أن تُستحضر بصورة عامة إلى المنحى البنائي، إلى ما يسمح بالحفاظ في منأى عن الأسلوب الأمومي القديم. إن الامتلاك الخيالي للقضيب، ورغبة إشباع امرأة كما قد يفعل رجل، يندرج في كبت وصد الشخص لأنوثته الخاصة، والمحرضة جداً على تدمير الداخل. وذلك يمكن أن ينطلق من التكافؤ مع نسيان الإشباع الخاص في العلاقة الجنسية، أو الحصول عليه بوسيلة وحيدة هي الاستمناء. وكذلك يتوافق مع تصور القضيب، تصورات مرتبطة بعقدة الإخصاء الأنثوية: «يعود الفضل لإصبع مفرط في الصغر»[1].

ويجدر بالذكر أنه في المثلية الجنسية الأنثوية، تتجذّر التصورات القضيبية نفسها في إحساس جنسي لما قبل المنظومة

(1) Ibid, P. 107.

الأوديبية، الفموية، على سبيل الذكر. ويوحي «جونز» أن الهوى التخيلي للإثارة الفموية للعضو الذكري ولدغة القضيب المسلوبة من الأم تلعب دوراً أساسياً في تشكيل اختيار ما للأداة.

ومن بين المسائل التي يستنتجها تعديل التصور الاجتماعي للمثلية الجنسية، هناك مسألة تسترعي انتباهاً خاصاً: إنها الطفل. فامتلاك طفل هو اليوم غاية يحققها العديد من الثنائيات المثليات الجنسيات سواء كانوا (رجالاً أم نساء). وبدون شك، من المبكر أن نتخذ إجراء تغييرات أو تعديلات نفسية ناجمة عن ذلك.

فهرس

مقدمة 5

الفصل الأول: الحياة الجنسية عند المرأة ـ لمحة تاريخية .. 16

أولاً ـ الدونية والخاضعة 19

ثانياً ـ المرأة والأم 22

ثالثاً ـ بوابة إبليس 28

الفصل الثاني: نظرية فرويد 34

أولاً ـ حضارة الميسين 35

ثانياً ـ رغبة القضيب 40

ثالثاً ـ الانعطاف نحو الأب 47

رابعاً ـ مصائر الأنوثة 51

الفصل الثالث: ذيول وانتقادات النظرية الفرويدية 55

أولاً ـ «لاكان»: العضو القضيبي وأبعاده 60

ثانياً ـ النقد الأنثوي 65

ثالثاً ـ شكوك «كارل أبراهام» وأسئلة فرويد لفرويد 74

الفصل الرابع: النظرية الأخرى «كارين هورني» و «ميلاني كلين» 77
أولاً ـ القضيب العملاق والمهبل المستنكر 78
ثانياً ـ «ميلاني كلين»: من النهد إلى القضيب 81
ثالثاً ـ كبت راديكالي 102
الفصل الخامس: قضايا وآفاق 105
أولاً ـ التكوين النفسي للعضوية التهيجية المهبلية 105
ثانياً ـ السلبية والماسوشية 118
ثالثاً ـ القلق الأنثوي، ملاحظات حول النرجسية 131
رابعاً ـ مظاهر البلوغ والمراهقة 142
خامساً ـ المثلية الجنسية الأنثوية 149
الفهرس 159

2009 /1 /844

النزوع الجنسي الأنثوي

إن البعد النفسي الجنسي للنزوع الجنسي الإنساني، والتبادلية الجنسية النفسية، وتعددية القيم والتماهيات، كل ذلك يشكل في آن واحد، اكتشافات لعلم التحليل النفسي، وإمكانية ممارسته. كما يتيح أيضاً لرجل في أن يكون محللاً نفسياً لامرأة، والعكس بالعكس.

وبالطبع، هناك مقاربات أخرى للنزوع الجنسي الأنثوي عن أن تكون تحليلية نفسية، وعلى سبيل الذكر، وجهة النظر التشريحية الفيزيولوجية.

إن لعبة تحديد الهويات تحرر التميز التشريحي، ولا تعبأ بتحديد الجنس. أما أين يقع التباعد المحتمل؟ فسندع للقراء والقارئات اتخاذ القرار في ذلك.

ISBN 978-9953-515-46-5
9 789953 515465

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع